تأملات في طبيعة المعجزة وشخصية النبي ﷺ

- عرضٌ وحوار -

وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا

العلامة المنار

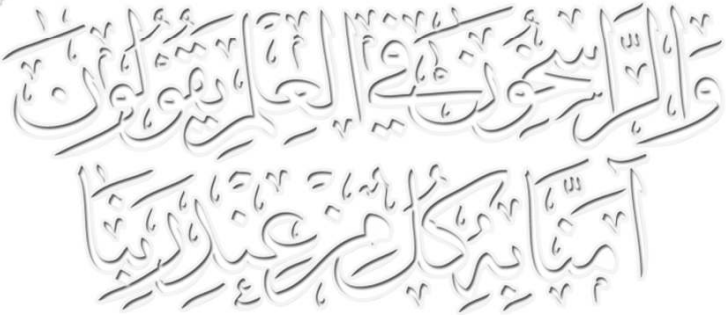

بسم الله الرحمن الرحيم

هوية الكتاب

العنوان: تأملات في طبيعة المعجزة وشخصية النبي – عرض وحوار –
المؤلف: العلامة المنار
الطبعة: الأولى 1435هـ / 2014م
عدد الصفحات: 147صفحة
متوسط، أبيض، إلكتروني
تصميم الغلاف: AH

الفهرس

تقديم ٢

العرض ٤

في ماهيّة المعجزة ٥

كيفية الإساءة للمعجزة ٢٠

الإعجاز بعدم أميّة النبي ٢٥

الحوار ٣٨

المعجز في القرآن الكريم ٣٩

شمولية إعجاز القرآن الكريم ٦٤

الإعجاز بالنبي أم بالقرآن؟ ٦٩

فهم معجزة النبي ٧١

ديمومة المعجزة دليل الصحة ٨٢

نظرية الإحكام: عرض وبيان ٨٤

نظرية القصدية: عرض ونقد ١٠١

القصدية ونفي الاستقراء ١٢٣

الإعجاز من ناحية القصدية: الرفض والقبول! ١٢٦

ورقة بن نوفل ونبوة النبي ١٣٥

الكنيسة وموقفها من النبي ومعجزته ١٣٧

جوانب معجزة النبي ١٤٢

الخاتمة ١٤٤

تقديم

إن قراءة ما تفيض به أقلام المفكرين والفلاسفة والأدباء، من غير المسلمين على وجه الخصوص، يثير تساؤلاً عن الحقيقة النورانية التي تشعّ بها سيرة أمير المؤمنين عليه السلام في نفوس هؤلاء حتى باتت كلماتهم تنساق وتفيض في مدحه، ووصفه، والثناء على عظمته، على أن اعتقادهم مرتكز على أنه بشر من سائر الناس وليس إمامًا معصومًا منصوصًا عليه غير أنه لعلو شأنه صار مصداقًا لكل كلمة مدح وثناء للإنسانية.

مثل هذا الأمر يدفع إلى البحث عن السبب الكامن وراء ذلك، غير أننا حينما نرجع للنصوص المروية عن أمير المؤمنين عليه السلام نراه يحيلنا إلى مصدر هذه النورانيّة، في قوله: «إنما أنا عبدٌ من عبيد رسول الله صلى الله عليه وآله» (الكافي ج١ / ٩٠)، وكذا في إشارته لنشأته بقوله: «ولقد كنت اتّبع النبي اتباع الفصيل لأمّه» (نهج السعادة ج٧ / ٣٣)، فهذه النورانية إنما مصدرها ومنشؤها ومبدؤها ومنتهاها هو نور النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كما في الخبر «نور نبيك يا جابر خلقه الله ثم خلق منه كل خير» (بحار الأنوار ج٢٥ / ٢٢)، وهي مكتسبة من الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

إن معجزة مثل هذه، أن يكون النبي صلى الله عليه وآله وامتداده متمثلاً بعلي وفاطمة والحسن والحسين والأئمة من ذريته عليهم السلام، والصحابة المنتجبين كعمّار وسلمان وأبي

ذر والمقداد، وتبعًا لهم سائر الأصحاب كَاُويس والأشتر وميثم وحبيب بن مظاهر والحر و.. و.. رضوان الله عليهم أجمعين، نورًا ساطعًا تحار العقول في تفسير ماهيتاتهم وكينونتهم وكلماتهم وأفعالهم، هم أبناء بيئة كانت كما وصفتها السيدة الزهراء عليها السلام في خطبتها: «على شفا حفرة من النار، مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون القد، أذلّة خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم» (بحار الأنوار ج٢٩ / ٢١٥)، يضع مفهومًا جديدًا للمعجزة حيث يحملها من خانة الإعجاز إلى حالة التحدي الدائم، وهنا هو مكمن القوة.

إنّ إنقلابًا لكل ما هو على أرض الواقع ينشأ فجأة ويكسر القوانين العقلائية ويخالف كل الاستقراءات ثم يستمر إشعاعه بلا إنقطاع إلى اليوم يجعل الإعجاز يتعدى إطار المادة، ويعطي الدافعية إلى العقل لأن يعيد صياغة مفهومه للمعجزة ويعيد التأمل باعتقاداته حولها، وهذا التحفيز المستمر للعقل لا ينتج إلا من عليم خبير حيث جعل الحجة على الإنسان دائمة ومستمرة بلا إنقطاع كما في حديث الإمام الكاظم عليه السلام لهشام: «إنّ لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة ، وأمّا الباطنة فالعقول» (تحف العقول ص ٣٣٨).

هذا الكتاب، هو عامل تحفيز بسيط لإعادة النظر وللمزيد من إجالة الفكر والبصر في مفهوم المعجزة المتحققة على يد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله؛ هو قد لا يقدم اجابات بقدر ما يطرح تساؤلات، لكن التساؤلات الصحيحة هي ما ستقود أهل الفكر والنظر إلى الضوء في نهاية النفق، وهذا هو تكليفنا نحن كبشر من ذوي العقول في هذه الحياة الدنيا، وبه يتحقق الغرض فينا.

المُعِد

العرض

في ماهيّة المعجزة

في سكرة التأملات العميقة، حاولت أن أتعمّق في مفهوم المعجزة، عسى أن ينشرح قلبي، فكلنا بحاجة إلى تعمّق وقناعة في هذا المفهوم، صغيرنا وكبيرنا. لماذا؟ لأنه أحد أسس ديننا الحنيف لكونه مرتكز التصديق بالنبوة والرسالة، وبدونه تخرب الديانة من ناحية عقلية وشرعية.

رهيب .. هذا موضوع مخيف للغاية ونحن نغفل عنه؟ فلماذا نغفل؟

لا أعرف سرًا لغفلتنا عنه إلا لأننا آمنا فطريًا بالله ورسوله، ولم نحتج إلى المعجز ليثبت لنا صدق الرسالة، هذه نظرة ابتدائية قد تكتنز معرفة حقة، ولكن هل يكفي الإيمان الفطري؟

العلماء يقولون: لا يكفي. فإن دعوى النبوة غير كافية ما لم يصاحبها معجز يثبتها. فماذا نفعل؟

يجيبني عقلي الداخلي: لَمَ أنت منزعج، فقد حدثت المعجزة أمام أسلافنا وأقنعتهم ونحن نروي قناعتهم لقناعتنا بهم وبما شاهدوه.

هذا كلام سليم.

ولكنه لا يُرضي علماءَ الكلام ولا المحققين الذي يقولون أن العقيدة أمر شخصي وجداني، يجب أن يعتقدها الشخص بالدليل.

واختلفوا في حجم الدليل بين الإجمال وبين التفصيل. ولكن للأسف كلها تبتني على أساس مهم، وهو صدق الرسالة، وهذه مبنية على إدّعاء الرسالة والمعجز المساند لها فتثبت الرسالة.

فرجعنا من حيث ابتدأنا.

قلت في نفسي يجب أن نقوم ببحثين منفصلين لا علاقة لأحدها بالأخر حتى نخلص من هذه الدوامة.

البحث الأول: ما مدى تأثير المعجزة على إسلام المسلمين الأوائل؟

الثاني: كيف نصوّر المعجزة في هذا الوقت بعيدًا عن مشاهدة المعجزة التي حصلت في ذلك الوقت؟

إذن لا نبحث فيما يبحث به الناس عن المعجزة وطبيعتها الذاتية وهل هي خرق العادة أم المفاجئة أم بحصر المصدر بالغيب؟

وهل المعجزة في العلم أم في الكلام أم في الأفعال؟

وهل المعجزة في تحريك الشجرة أم المعجزة في القرآن؟

وما هي طبيعة إعجاز القرآن؟ هل هو الصرفة أم النظم أم المعنى أم السر الحرفي أم الأعداد والقيم الحسابية المعقدة؟

هذه بحوث جليلة وعظيمة ولكن يشوبها شائبة التعقيد وهي لا تناسب المسلم العادي.

فهل المعجز وجد للعلماء فقط أم للجميع؟

لهذا نحاول أن نفهم القضية بأسلوب آخر.

نأتي إلى البحث الأول: ما مدى تأثير المعجزة على إسلام المسلمين الأوائل؟

سيرعب الإنسان حين يكتشف بأن الإسلام لم يبنَ على المعجزة وإنما بني على القناعة القلبية التي تفوق المعجزة،

وسأبيّن الحال باختصار:

لو جردنا السيرة النبوية لوجدنا أن أغلب من طلب المعجز من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يؤمن به .. ولكن من آمن به لم يطلب المعجز.

فعلي بن أبي طالب آمن بالإسلام وكذا خديجة لمجرد أن سمعوا من الرسول النبوءة، والسبب واضح هو شخصية الرسول النزيهة التي يعرفونها حق المعرفة. وهذا حدث مع كل الصحابة الأجلاء المقداد وأبي ذر وزيد وعمار وحمزة وأبي طالب و.. و... إلخ.

وأبو جهل وأبو سفيان وغيره من زبانية جهنم، طلبوا المعجز مرارًا، فعمل لهم الرسول المعجز فيقولون ساحر وكبير السحرة! ومن ادعى منهم الإيمان فهو نتيجة الهزيمة العسكرية وليس للإيمان نفسه.

إذن المعجزة لم تكن – بحدود ما درسنا من واقع – هي السبب في إيمان أعظم المسلمين، ولم تكن لتغيّر كفر الكافرين.

أليست هذه معضلة؟ ما الحقيقة إذن؟

يا إلهي أنر قلبي بشمس الحقيقة «هذا هو دعاء كل مخلص حين يرى هذه المشكلة، حيث لا يدري هل كلام أهل العقيدة صحيح أم هذا الواقع هو الصحيح».

جوابي الجازم هو: أن كُلَ الرسولِ صلى الله عليه وآله وسلم معجزٌ. فلهذا تاه علينا المعجز.

هذا فتحٌ قلبيٌ يجب أن نوضحه.

دعونا نتساءل: حين آمن علي عليه السلام بالرسول هل قال له كيف تثبت هذا؟

لا، أبدًا.

وكذا جميع من عرفناهم من مخلصي صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلماذا كان منهم هذا التصرف؟

لأن نفس الرسول كان اشراقة نورانية على قلوبهم فلم يحتاجوا لمثل هذا السؤال.

إذن هنا فاعل عظيم وقابل كريم، والبحث في الفاعل وفي القابل.

ولكنه بحث يطول نتركه لتأملات المشاركين. فأين أهل النظر بعين الله التي لا تنام ليدلونا الطريق؟ أجيبوا داعي الله.

وحاولوا أن تفكروا في الجواب الذي يحاول معرفة سر عدم إيمان من طلب المعجز. ومن آمن لم يطلبه؟

وهلموا إلى أسرار أخرى حلوة وعذبة وسلسة.

وهنا نأتي إلى البحث الثاني: كيف نصوّر المعجزة في هذا الوقت بعيدًا عن مشاهدة المعجزة التي حصلت في ذلك الوقت؟

من خلال ما تقدم ننتقل من الماضي إلى الحاضر.

يقول النصارى أنكم تدعون أن القرآن معجزة، فنقول لو سلمنا أنه معجز لأهل العربية فكيف يكون معجزًا لغيرهم حين لا يرون فيه أي ميزة وقد ترجم إلى عدة لغات فلم يكن ذا شأن أدبي عند الشعوب حتى المسلمين منهم.

يقول اليهود والنصارى إنكم تقولون بنفي ديانتنا لأن ديانتكم معجزتها متجددة ومعجزتنا قد انتهت. فما تجيبون لو قيل لكم أن معجزتكم القرآن أصبحت محدودة بكم ومع ظهور تيارات الحداثوية أصبح القرآن متناقضًا وليس بمعجز.

هل عندكم جواب يا أحبابي أم توافقون اليهود والنصارى على ما يقولون؟

اليوم علينا تكّوين منظور فكري لدراسة طبيعة ما نراه فعلاً من معجزة.

و الإضاءة الحقيقية جاءت من حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حيث لم يحتج المؤمن إلى معجز ولم ينتفع الكافر والمنافق بالمعجز.

لنأتي ونفكر من جهة القابل أولاً:

الفاعل الفياض بأي صورة كان فيضه سواء (علمًا أو بهجة أو وجودًا) يعرفه كل من كبرت قابليته على اختزان فيضه.

فكما يقال كلما كبر الماعون زادت سعة الخزين من فيض الرحمة والمطر.

فالقابل له دخل كبير .. فسليم القلب يستوعب الفيض {إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} ومن شدة استغراقه بالنور يتحول هو إلى نور {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (١٢) سورة الحديد

ومظلم القلب لا ينتفع من النور كما تشير الآيات الكريم {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ} (١٧) سورة البقرة

وهنا سؤال مهم.

كيف نقتنع برسالة السماء؟ هل نقتنع فقط بالمعجز الآني؟

حسب تأملي بما حدث مع الرسول الجواب: لا.

القناعة نتيجة شبكة مترابطة من المعلومات، ولكنها ترتبط بالشخص المنتج للمعلومات ارتباطاً وثيقًا نتيجة سلوكه وفكره.

علينا أن ندرس جوانب المعجزة في شخص الرسول قبل أن ندرسها في القرآن الكريم وغيره. نعم ندرس معجزة الرسول في ما نقل أو فيما أنتج.

الإنسان ابن محيطه في كل شيء، في الثقافة وفي الحياة وفي القيم وفي الأحكام وفي المظهر ... الخ

فإذا وجدنا أن إنسانًا فاق محيطه وزمانه بشكل خارق كان هو المعجزة بحد ذاته، وإذا بقي التفوق له إلى الزمن الذي نحن فيه فهو معجزة حقيقة لحد الآن.

وهكذا وجدنا الرسول صلى الله عليه وآله معجزة متحركة: ابن صحراء قاحلة .. لا علم فيها .. لا تقدم حضاري .. لا قيم أخلاقية .. لا اقتصاد ... لا إدارة .. ..إلخ

نراقبه .. نراقب كلماته .. نراقب إنتاجه .. نجده متفوقا في كل شيء

ما من علم إلا وله فيه كلمة صحيحة لم يبطلها علم

ما من فن إلا وله فيه كلمة صحيحة تهدي مسراه

القانون كله قد انبثق منه فجأة

الشريعة المعقدة سالت من بين أصابعه الشريفة

الحكمة تعدت حدود البشرية حيث عجز الناقلون عن نقل جميع حكمته

الإيمان ومراتبه فقد أعجز من جاء بعده في بلوغه

الصفات النفسية العظيمة لا مثيل لها فهي من أقصى الكرم والرأفة إلى أقصى الشدة في ذات الله.

إن من يدرس ما أثر عن الرسول ليدهش من اختراقه لحواجز الزمان والمكان.

إنها الرؤية الثاقبة لما وراء الحجب، حيث يرى المستقبل كما يرى الحاضر، ويرى الباطن كما يرى الظاهر. ويرى الخفي كما يرى الجلي، فلا علم يعتب عليه بعدم المرور، ولا فن من فنون الرقي هرب من لمساته الشريفة.

عجيب .. عجيب هذا الرجل العجيب.

إنه أغرب من الخيال.

لا يستطيع أن يفلت منه شيء!

والأعجب من هذا أنه علّم بعض صحبه منطق العقل ومساره الصحيح.

وورثناه.

وعرفنا بهذا المنطق العظيم كيف نميّز بين الحق والباطل فطريًا. ولولا هذه الوراثة العظيمة لكنا الآن وهابية مجسمة نشرك الله ونصيح نحن أهل السنة بينما أهل السنة

موحدون، وهؤلاء مشركون، ولكن لأنّ خللاً بالمنطق حاق بهم فجعلهم يرون الشرك إسلاماً والإسلام شركاً.

سبحانك اللهم ما أعظمك وأعظم صنعك بهذا المخلوق المقدس.

لقد تعلمنا منه أن نميّز بين الصادق في دعواه والكاذب.

ولهذا لم يحتج أبونا أمير المؤمنين عليه السلام للمعجز لأنه يعيش مع المعجزة المتحركة التي تطوي الأشياء كطي السجل.

فلا تخونه معرفة ولا تفوته حادثة، ولو استشرف على التاريخ من طرفيه لحصل على ما يريد. فمن كان مع المعجز وهو يرى ويفهم المعجز فلا يطلب المعجز، ومن كان أعمى لا يرى المعجز وهو معه وهو يطلب المعجز دائما، فلا ينفعه إعجاز.

مفارقة جميلة

حين أقرأ القرآن الكريم ينتابني شعور مزدوج، أشعر بأنني أمام كلام عظيم، وأشعر بأنني أمام رسول معجزة أوصل لنا هذا الكلام المعجز.

إن إيماني بتنوع القرآن وعظيم صنعته يربطني بالنبي محمد صلى الله عليه وآله بعكس الكثير من المسلمين الذين يخافون الربط بين القرآن والنبي محمد صلوات الله وسلامه عليه وآله، لأنهم يعتقدون بأن الربط قد يوحي باختلاق النبي للقرآن.

رباه ما هذا الجهل؟

أيعقل أن كتابًا يعجز عنه البشر من حيث التنوع يمكن أن ينتحله شخص إنساني؟

فإذا كان نفس الشخص معجزة فيستحيل أن يكون الكتاب منه لأن كونه معجزة فهو مرتبط بمن أعطى المعجزة وبالتالي فالقرآن معجزة وهو معجزة خارج قدرات البشر. فهما من سنخ واحد، فكيف يمكن القول بأنه مخلوق له.

هذا جهل فظيع.

القرآن يهديني للرسول لأن كل حرف فيه هو الرسول.

الرسول يهديني للقرآن لأنني كلما أردت الرسول أجده في القرآن. وهو مفتاح أقفال القرآن، والقرآن وجه من وجوهه النيّرة.

هذه معادلات سهلة. ولكن هل القرآن يفقد معجزته بتغيير اللغة كما يقولون؟

لو كانت المعجزة لغوية لقلنا لهم معكم الحق.

ولكن المعجزة هي المعرفة المترامية الأطراف التي تقنع كل عاقل به بدون أن يطلب معجزة، فضلاً عن أن القرآن لسان وليس لغة.

القرآن مثل الرسول والرسول مثل القرآن طريقتهما إقناع القلوب المشرقة وتحريك الأجسام الخامدة من دون التفكير بالمعجز وهذه هي المعجزة بحد ذاتها.

حين تقرأ القرآن يقنعك بوحدانية الله وبعلم الله ويوم الحساب وبأمور كثيرة هي جوهر دين الإسلام ببراهين تدخل القلب.

تنطبع في قلبك كل الحجج حتى لو كنت كافرًا به.

إنها لغة تسيطر على العقل لتعطي أربعة جمل أو خمسة أساسية .. منها: (الله واحد) (الرسول حقيقة) (الإيمان طريق النجاة في الآخرة) وهكذا.

هذه العناوين يقتنع بها كل من يقرأ القرآن بقلب سليم.

ومن لا يؤمن بها .. فهذا لو نزل عليه جبريل عليه السلام وأجرى له المعجزة لقال أنها سحر ويخاف من الدخول في الإيمان لأنه يعتقده سحرًا.

أليس معجزًا أن تكون القناعة عن طريق القلب وليس عن طريق المعجز، وهي متعلقة بأمر خطير يحتاج إلى معجز لإثبات صدق الدعوى.

إن إثبات صدق الرسول والرسالة يحتاج إلى معجز وإلى آيات ولكن من يقرأ القرآن لا يحتاج للقناعة إلى معجز، أنه كتاب يدخل الجوانب الخفية من العقل ليبرم بإحكام كل عرى الإيمان ويجعلها في نقطة مضيئة ودائمة في عقل الإنسان. ولهذا دائما نفكر بأن دليل إعجاز القرآن نفسه هو قوته في الإقناع وقبوله عن قارئ سليم القلب والسريرة.

فالقرآن يفعل بنا نفس فعل الرسول بعلي بن أبي طالب وأبي ذر وسلمان وحذيفة وكل المؤمنين الذين لم يطلبوا برهانًا لأنهم حصلوا على البرهان قبل النطق بالقضية. وهكذا القرآن يحمل صدقه معه ويحمل قدرته معه.

إن متشابهات القرآن مصدر تخريب للقرآن بيد المخربين، ولكن القرآن نفسه حمى نفسه بنفسه من هذا المعول. حيث لا يصح الجمع بين المتشابهات {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ

فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} هذه حصانة أسقطت كل التلاعب بالقرآن

إن من يفهم هذه الآية المباركة يدرك أن جميع من يريد تخريب القرآن إنما يقوم بالجمع بين المتشابهات والقرآن قد شخّص هذه الحالة. وقال إن استخدامها لا ينفع. وهو زيغ وفتنة وتأويل الكتاب بالباطل. وليس لهم القيامة به، فتأويله عند أولي الرسوخ الذين يفهمون التشابه.

هذه عصمة للقرآن بحيث أنه يستبطن رد كل ما قالوه عنه بجملة واحدة.

فلا راد للقرآن مطلقًا.

وكل من يدعي الرد فهو قد جمع المتشابهات وهذه محسومة مسبقًا.

والنتيجة السقوط.

ولا يوجد أبدًا غير ذلك.

وهذا هو ما أجاب به مولانا الإمام الحسن العسكري عليه السلام للفيلسوف الكندي الذي مزق كتابه من كلمة صغيره قالها الإمام له مفادها: إن من يجمع بين المتشابهات ليس بناقض وهو ليس بعالم.

وهذا الجواب من القرآن نفسه.

إنها حصانة عجيبة تحمي الكتاب بكامله.

هل هناك كتاب يحمي نفسه بهذا المستوى؟

إذن المعجز اليوم هو نفسه المعجز في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

لأنه نفس الطبيعة ونفس المسلك.

هو السيطرة على العقل الواعي لإنتاج قضايا دينية تسيطر علينا.

ومن هنا كانت خطورة القرآن.

إن التلاعب بالمتشابهات هو أعظم عدو لكتاب الله وهو التحريف الحقيقي الذي يقوم به المجرمون من سلفية وغيرهم.

ولهذا علينا أن نصادق القرآن الكريم، ونشرب من منهله العذب لأنه هو نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الطبيعية العقلية التي جعلت علياً يؤمن إلى درجة ما بعد اليقين فعلينا أن نستنطقه ليجعلنا نصل إلى رتبة اليقين. وعلينا أن نخضع له لا أن نطوّعه حسب أهوائنا باستخدام ما تشابه منه.

هذه تأملات بسيطة وغير مرتبة ولكنها ضرورية في بابها، ولا تقف التأملات عند هذا الحد ولكننا نقف عند حد الملل للقارئ الكريم.

أتمنى على الأحبة الكرام من أحباب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يفكروا ويستنتجوا و يبدعوا الأفكار، من أجل الربط بين حقيقة المعجزة في حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبين إيماننا بمعجزة الإسلام الخالدة

وبقية البحث على أحباب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

مصادر قد تُعين مَن يريد التفكر في الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وفي سلوكه وفي كونه معجزًا بجوانب كثيرة:

- كتاب الله الكريم، أدعو لقراءته كأنه رسول الله صلى الله عليه وآله حين يقنعنا.
- كتاب الحق المبين في معرفة المعصومين للشيخ علي الكوراني حفظه الله وفيه لمحات لطيفة.
- كتاب الصحيح من سيرة الرسول صلى الله عليه وآله للسيد جعفر مرتضى العاملي حفظه الله
- كتاب المجازات النبوية فيه دراسات لنصوص الرسول حيث يبيّن جوانب الإبداع فيها.

وكتب أخرى تتعلق بحكمة ودقة الرسول في استشراف الأحداث وهي كثيرة وعليكم بالبحث عنها وتلقفها بالقراءة والفهم.

كيفية الإساءة للمعجزة

الأخوة الكرام،

أرى أن لبساً قد حصل عند بعض الإخوة، وهو أنهم حين يقرؤون أسئلتي التي أنقل فيها أقوال الكفرة والملحدين حول القرآن وشخصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، يعتقد البعض أنني متحيّر بها.

هذا الموضوع أساسًا هو لتدريب المثقفين المسلمين على الجواب عما ينتشر الآن خصوصًا في النت من إشكالات على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والرسالة والكتاب الكريم.

ومهمته تجميع أفضل الأفكار للمشاركة الواعية في الرد والنقض على ما يبرمه أعداء الإسلام.

كما أنه دعوة لتقوية الإيمان وحضور الدليل لدى المسلم لمن يسأله عن الدليل.

ولهذا أطرح أسئلتهم وقد أُضمّنها الإجابة بتلميح أو اختصار حتى لا أكون آثمًا بترسيخ شبهة ولو مؤقتًا، والحقيقة أنني لا أطرح الموضوع بشكل أكاديمي وإنما بمطارحة أفكار دائمة المراجعة.

وأحب أن أبين أهمية وخطورة الموضوع وأقصد به موضوع المعجزة واثبات النبوة، وقد عبرّت عنه عدة مرات، وقد فهم بعضهم تعبيري عن الأهمية .. [بأن موضوعي أهم من القرآن!] وهذه قراءة بعيدة عن الخبرة.

الآن، في النوادي الثقافية ونتيجة العولمة أصبحت الشبهات تطرق كل باب، وبعض الشبهات يعجز عنها المثقف العادي. وأهم ما يقوم به أتباع الديانات كالمسيحية واليهودية والهندوسية هو إثارة الشبهات على موضوعين يحسبون أنهما يهدمان الإسلام من أساسه.

الأول: يركز على نصوص بعض المسلمين في شخصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسيرته الدالة على عدم علوه في مرتبة البشرية.

والثاني: هو نبذ فكرة الإعجاز القرآني والتركيز على عدم صحة هذا الإعجاز. بدعوى عدم وجود ميزات فيه تجعله كتابًا مميزًا فضلاً عن كونه متناقضًا وغير محدد الدلالة باعتراف المسلمين كما يقولون.

والحقيقة لو تمت هذه الإشكالات لكانت ناقضة للإسلام، ولكن بحمد الله فهي غير تامة، إلا أن لها أصولاً في مصادر المسلمين يجب أن نعترف بها وهي إشكالات خلقها بعض من ينتمي للإسلام بعلم منه أو بدون علم.

منها مثلا الروايات التي تدل على شهوانية الرسول – والعياذ بالله –، وتزلزل إيمانه، وكونه لا يفرّق بين الشيطان وجبرائيل وغير ذلك، وهذه موجودة في كتب المسلمين، بل موجودة فيما يسمى بالصحاح، مثلاً هل هناك شك في تفسيرهم لقوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}. فقد أجمع المفسرون من أهل الحشو أئمة السلف الطالح على كون الشيطان يلقي في قلب النبي – حاشاه –بعكس تفسير أهل البيت عليهم السلام الذي يحل المشكل، ولكن الجماعة يصنعون المشكل ويرون أنهم يحسنون صنعًا بضبط السند كما يدعون!

وبالنسبة للقرآن فهم تارة يدعون أن بعض الآيات نزلت بعد أن قالها صحابي ويسمونها موافقة الصحابي للقرآن وهي في الحقيقة موافقة القرآن للصحابي ضد النبي كما يصورون! وقد يكون حسب نقلهم قول من أقوال العرب كاقتربت الساعة وانشق القمر وغيرها. وقد يطعنون بالدلالة فيقولون أن المتشابه والعام والمطلق لا تحديد فيه فلا معنى له، وقد يطعنون في القرآن فيغنون ويطربون على التهمة السخيفة التي يتهمون بها الشيعة بأنهم يقولون بتحريف القرآن والشيعة يردون عليهم بأنكم تقولون بالفعل بتحريف القرآن ونقصه وزيادته ويأتونهم بآيات مثل الرضاع والرجم ووادي الذهب وسورة الحفد وغير ذلك.

فيكون مجموع الحاصل من معركة الطرفين أن لا ثقة بالقرآن ولا معنى له حسب ما يقوله المسلمون أو من يدعون الإسلام.

هذه العبثية في تناول أهم موضوع في الإسلام وهو الموثوقية والصدقية والبرهان العملي، لهي عبثية مدمرة يقوم بها مسلمون بدوافع طائفية وأخرى حزبية وأخرى لنصرة سلطان جائر وشيطان فاجر. إنه عدم الشعور بالمسؤولية تجاه الإسلام والعبثية في الصراع الإسلامي- الإسلامي من دون تأمل بنتائج الأعمال وبتربص الأعداء.

إن أي تجميع لما يسمى بالفضائح للطرف الآخر إذا لم تكن محددة على ما دون المساس بالكيان الإسلامي، فهي جريمة ينقلب العبث فيها إلى تدمير حقيقي للإسلام، رضي بذلك العابث أم أبى.

فمن يصر على مواضيع تحريف القرآن وتمييع الدلالة القرآنية والتوسع في النسخ وتثبيت وتصحيح روايات تسيء للرسول والرسالة لا يمكن حمله على محمل البساطة والعفوية في الطرح خصوصًا بعد تنبيهه.

إن من يراقب الحوار الطائفي المسيحي مع المسلمين يلاحظ بسهولة إن جميع إشكالاتهم تنشأ بعد أن يغرق الطائفيون الحشويون ساحات الثقافة بإشكالات موجّهة للشيعة ولكنها في الحقيقة موجهة للإسلام. فترى الطائفيين النصارى يوردون نفس الإشكالات بنفس المواضيع ويعتبروها ردًا على الإسلام مثل التحريف والنسخ والتشابه وذوبان الدلالة، ويوردون ردود الشيعة أيضًا عليهم فيستعملونها لنقض الإسلام باعتبار أنهم يصرّون على اعتبار الفكر الحشوي هو الإسلام وكل رد عليه هو رد ونقض للإسلام.

وهذه لعبة هابطة لا يلتفت لها المسلمون ولا يتصدى لها المخلصون. ولا يستحي منها الطائفي الهابط كما يحدث في قناة الحياة من أكاذيب واعتداءات على الإسلام بهذه الطريقة.

وأكاد أجزم بأن جميع ما يورده ذلك القمّص هو من نفس شواهد العراك السني – الشيعي بحذافيره. وكأن هذا القمص السخيف يصر على اعتبار روايات الإساءة للرسول على أنها هي حقيقة الرسول مستغلاً الدفاع المستميت لتصحيح هذه الروايات الساقطة الهابطة التي تصف الرسول بشتى الأوصاف المهينة.

ولعل في أخوتنا المحاورين من هو متخصص في الحوار مع هؤلاء الطائفيين ويعرف مدى الإحراج حين يستدلون بمواد الحوار بين المتصارعين المسلمين. ويستطيع أن يشرح معاناته وصعوبة التفاهم والدفاع، نتيجة توفير هذه المواد بين أيديهم مثل التحريف وسيرة الرسول. فإذا وجد بين الأخوة من يمارس مثل هذا الحوار فلا بأس أن يشرح لنا ما يسببه هؤلاء الحمقى الحشويين المجسمة من إحراج وتضعيف للدليل الإسلامي.

فعلينا أن نكوّن قاعدة بيانات في قضية مهمة تضع جميع ما يتعلق بصحة النبوة وحقيقة المعجزة. موضع الدراسة والتنقيب.

الإعجاز بعدم أميّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم

جرت عادة الكثير من علماء الإسلام عمومًا وخصوصًا من السنيين على اعتبار أنّ أميّة الرسول معجزة، حيث أن رجلاً أُميًا ينتج دينًا كبيرًا دان به العلماء، يعتبر معجزة حقيقية، وهو كلام له وجاهة ولكنه محل تأمل من عدة وجوه، وذلك لعدة أسباب:

الأول: العلماء في الأمم دانوا لمبادئ خرافية في أممهم إما جريًا على العادة أو خوفًا من شعوبهم فلا دليل بديانة العلماء على صحة دين معين، فهذه اليابان وغيرها ممن يدين علمائها بالبوذية الخرافية!

ولكن أن يدافع العلماء عن كل شارة وواردة عن الدين بطرق علمية فهذا مختلف وهو الذي يحدث في الإسلام. وهذا لا علاقة له بأميّة أو بكتابة، وإنما له علاقة بطبيعة الأطروحة المعجزة في الدين الإسلامي عمومًا. فينبغي أن يقال إن النبي معجزة سواء كان أميًّا أو أنه يقرأ ويكتب؟ فالمعجزة أن يخرج علم في ظرف الجهل المطبق كما حدث لمولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وليس أن يخرج علم في ظرف عدم الكتابة لانعدام السنخية بين الموضوعين.

الثاني: أن القراءة والكتابة وجودًا وعدمًا، لا تقلل من معجزة الرسول ولا شعرة، فلم تكن القراءة والكتابة يومًا مولِّدة لدين عظيم وإنتاج هائل في كل ميادين الحياة والعلوم! فالقرآن والأحاديث الشريفة التي نرويها عن الرسول والفقه المتولد منها والعلوم الكثيرة من أخلاق ومنطق وسياسة وعقيدة سليمة موحدة لله لا يستطيع الإتيان بها مجرد من يقرأ ويكتب، بل لا يستطيع عالم أن يلم بها و يأتي بها جميعًا.

ففي زمننا العجيب الذي توفرت فيه الإمكانات العلمية وأدواتها والبحوث المدعومة واتساعها، لا يستطيع عالم أن يأتي بما أتى به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، رغم أن بعض العلماء يقرأ بحدود ١٥ ساعة يوميًا كما هو حال المراجع عندنا في الغالب، وبعمر يناهز التسعين سنة مع أنه يبتدئ قراءة العلوم من سن السادسة، ومع ذلك لا يستطيع أن يجاري مهمة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في جانب من جوانبه، وهو قد ابتدأ النبوة في سن الأربعين واستشهد في سن الثالثة والستين.

فالقراءة والكتابة لا تزيد ولا تنقص مع وجود مثل هذه القدرة الهائلة التي يشعر إزاءها كل العلماء أنهم نقطة في بحر علوم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

فما نراه الآن من صراع الديكة بين المسيحيين وبعض المسلمين حيث يحصرون المعجزة في الأمية فهذا غير سليم مطلقًا، وما يدعيه بعض النصارى من أهمية دليل القراءة والكتابة للنبي لسقوط نبوته باعتباره يقرأ ويكتب لا صحة له، وكذا نتيجة ذلك من دعوى: أنه ما هو إلا رجل دين مسيحي متعلم تمرد على الديانات حوله.

وهذه الحجة غريبة إذا كانت تصدر عن عالم، ولكنها ليست بمستبعدة إذا كانت تصدر من جاهل أحمق.

وذلك أنّ تعلّم الكتابة لا يمكن أن تَصنَع نبيًا أو حتى أن تكوّن عالمًا، فمن يقول بهذه الإشكالات يكتب ويقرأ ولكنه جاهل بأبسط قواعد العقل وهو الملاحظة الخارجية لحال القضية المبحوثة، فهو لا يدري أن من يقرأ ويكتب لا يمكن أن يكون فاضلاً وعالمًا ما لم يتحلَّ بحلية العلم نفسه، والقراءة وسيلة بسيطة. فكم من حكيم متين عالم لا يقرأ ولا يكتب. وكم من كاتب متعلم وهو جاهل أحمق لا يفهم ما يقرأ ولا يستطيع تفسير كلام الناس فضلاً عن كلام العظماء أو كلام الله. فهذا القائل نفسه لم يلتفت لنفسه أنه جاهل هذا الجهل مع أنه يقرأ ويكتب. فكيف يعتبر القراءة والكتابة دليل علم بالأديان السابقة وإحاطة بالتشريعات تسمح للقارئ الكاتب أن يكوّن دينًا عملاقًا يأسر القلوب ويسيطر على العقول ويقيم حجته من نفسه بنفسه.

ولو سألناهم: ما الموجب لرفع المعجزة عن الرسول إذا كان يقرأ ويكتب؟ وكيف يمكن تصوير ذلك؟

فهم يجيبون بجواب أغرب من الخيال، يقولون أن النبي كان عالمًا بالديانات وذكيًا ولهذا كوّن دينًا يلفق بين الديانات ويخلط بينها. وليس دينه من الله.

وهنا نسألهم كيف تعلم؟ وما حجم التعلم؟ وما هو الدين الأساسي له ليقوم بالتلفيق بين الديانات؟

وجوابهم هو: إن النبي تعلم من بحيرى الراهب ومن ورقة بن نوفل وكلاهما مسيحي. وأما حجم العلوم فهو كل الديانات المسيحية واليهودية وغيرها، وأما الدين الأساسي فغير معروف ولكن شيوخه مسيحيون.

وهنا لنتأمل هذه الأجوبة:

فقد اجتمع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ببحيرى الراهب في بصرى سويعات، وكان معه جده عبد المطلب، فهل كان يمتلك بحيرى قمعًا لزق العلوم العجيبة بدماغ الناس في ساعة واحدة؟ لا نعرف كيف يصدق جاهل هذه الحجة. ولم يثبت أبدًا تتلمذه على بحيرى وإنما القصة تقول إن بحيرى توسّم في محمد النبوة وأوصى جده برعايته. فأين هذه القصة من دعوى تعلمه عليه وأخذه الدين منه وتمرده على الديانة النصرانية.

ورقة بن نوفل لم يكن على علاقة بالرسول متماسة وإنما كان عم خديجة زوجة الرسول ولم يكن على علاقة به، والأقرب عندي أنه مسيحي رغم شك الكثير من الباحثين بمسيحيته، وذلك لورود نص بأنه من القسيسين وهذا لا يطلق على غير المسيحي وقد ورد أنه متنصّر بروايات غير واضحة الثبوت، وأما قصة بدء الوحي التي ترويها السيد عائشة، فهي رواية غير مصدَّقة من قبلنا لأن فيها منافيات العقل والدين والأدب. ومع ذلك فليس فيها أكثر من اقتراح أمنا السيدة خديجة سلام الله عليها، أن تعرض أمر ما عراه على ورقة، فأشار عليها ورقة أن هذه علامات النبوة، وبيّن لها الاختبار بنزع الخمار أمام المَلَك كما تدّعي الرواية، فأين ما يزعمون من التعلم والدراسة؟

وهناك سيناريو لطيف يستدلون به على تعلمه من ورقة، وهو: بما أن القس ورقة هو الذي تولى عقد قران ابنة أخيه خديجة على الشاب محمد وكان قبل نبوته بسنين وقد قال أبو طالب شعرًا بهذا الزواج، وبما أنه رضي الزواج فهذا دليل على أنه علّمه الديانة النصرانية لأنه (لا بد من تعميده) وهذا يعني دخوله النصرانية، فكان نصرانيًا ثم ارتد عنها Kوهذا الكلام من الأمية الفكرية كما لا يخفى.

وعلى كل حال فلم يكن ورقة هو الذي أجرى عقد القرآن بل هي خديجة نفسها وأمام الجمع ولم يُعلم أن خديجة كانت نصرانية حتى تطلب التعميد بل العكس صحيح، وقد ورد في خطبة أبي طالب أنهم على دين الحنفاء ومذهب أبناء إسماعيل، و لم يكن القس ورقة قابلاً بالزواج كما يدّعون فقد تلجلج فاعترضت خديجة عليه وزوجت نفسها من النبي مباشرة، ولم يكن أبو طالب قد قال الشعر في الزواج وإنما شاعر آخر اسمه عبد الله بن غنم، ولم يكن من لقاء يذكر في التأريخ مع ورقة حتى يثبت التعلّم، فلم يُذكر أنه تردد عليه أو تعلم منه أو حتى ذكره في شيء من قول أو فعل بعكس عمه وجده.

وهذه هي الرواية التي تتكلم عن زواجه من أجل أن نعرف مدى الحماقة في قراءة الروايات ومدى الأمية الفكرية التي هي معجزة الجهلة، في الكافي – الشيخ الكليني – ج ٥ ص ٣٧٤:

بعض أصحابنا، عن علي بن الحسين، عن علي بن حسان، عن عبد الرحمن بن كثير، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: لما أراد رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن يتزوج خديجة بنت خويلد أقبل أبو طالب في أهل بيته ومعه نفر من قريش حتى دخل على ورقة بن نوفل عم خديجة فابتدأ أبو طالب بالكلام فقال: الحمد لرب هذا البيت، الذي جعلنا من زرع

إبراهيم، وذرية إسماعيل وأنزلنا حرما آمنا، وجعلنا الحكام على الناس، وبارك لنا في بلدنا الذي نحن فيه، ثم إن ابن أخي هذا – يعني رسول الله (صلى الله عليه وآله) – ممن لا يوزن برجل من قريش إلا رجح به ولا يقاس به رجل إلا عظم عنه ولا عدل له في الخلق وإن كان مقلا في المال فإن المال رفد جار وظل زائل وله في خديجة رغبة ولها فيه رغبة، وقد جئناك لنخطبها إليك برضاها وأمرها والمهر علي في مالي الذي سألتموه عاجله وآجله وله ورب هذا البيت حظ عظيم ودين شائع ورأي كامل، ثم سكت أبو طالب وتكلم عمها "وتلجلج وقصر عن جواب أبي طالب وأدركه القطع والبهر وكان رجلاً من القسيسين" فقالت خديجة مبتدئة: يا عماه إنك وإن كنت أولى بنفسي مني في الشهود، فلست أولى بي من نفسي، "قد زوجتك يا محمد نفسي"، والمهر علي في مالي فأمر عمك فلينحر ناقة فليولم بها وادخل على أهلك قال أبو طالب: أشهدوا عليها بقبولها محمدا وضمانها المهر في مالها، فقال بعض قريش يا عجباه المهر على النساء للرجال، فغضب أبو طالب غضبا شديدا وقام على قدميه وكان ممن يهابه الرجال ويكره غضبه، فقال: إذا كانوا مثل ابن أخي هذا طُلبت الرجال بأغلا الأثمان وأعظم المهر وإذا كانوا أمثالكم لم يزوجوا إلا بالمهر الغالي، ونحر أبو طالب ناقة ودخل رسول الله (صلى الله عليه وآله) بأهله وقال رجل من قريش يقال له: عبد الله بن غنم:

هنيئًا مريئًا يا خديجة قد جرت لك الطير فيما كان منك بأسعد

تزوجته خير البرية كلها ومن ذا الذي في الناس مثل محمد

وبشر به البرّان عيسى بن مريم وموسى بن عمران فيا قرب موعد

أقرت به الكتاب قدما بأنه رسول من البطحاء هاد ومهتد

سلام الله عليك يا أبا طالب من عظيمٍ تقول كلمةً عظيمة: «إذا كانوا مثل ابن أخي هذا طُلبت الرجال بأغلى الأثمان وأعظم المهر وإذا كانوا أمثالكم لم يزوجوا إلا بالمهر الغالي».

أي والله محمد يُشترى بأغلى الأثمان وأمثال زعماء السلفية كأبي جهل خال الخليفة وأبي سفيان عابد إبليس مما يباع بأبخس الأثمان ولا تقبله امرأة إلا بأغلى المهور.

فالخلاصة أن دعوى أهمية القراءة والكتابة للنبي، واتصال الرسول بعلماء مسيحيين كلام ضعيف، وغير علمي ولا يستحق المناقشة. والغريب أن النصارى يجهدون في اعتبار القراءة والكتابة دليل نقص في النبوة بينما عيسى نفسه كان يقرأ ويكتب وكان يدرس في الكتاتيب وقد درّس اليهود وقرأ لهم الكتب وكلام القدماء وطالبهم بقراءة ما في الكتب ووبخهم بقوله أما قرأتم عدة مرات وعيرّهم بعدم الدقة في قراءة الكتب: (و قال لهم تضلون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله)، وكل الأنبياء هم ممن يكتب ويقرأ ويؤلف الكتب، فأين الضير في نبوة أو ربوبية من يعتقدون إذا كان يقرأ أو يكتب كيسوع مثلاً؟

المسألة ليست أكثر من فكر الوهابية فهم كثيرًا ما يعتبرون أمرًا ما فضيلة لمن يمجدّونه. ونفسه بعينه منقصة لمن لا يحبون. ومنها كتابة الحديث. ولا ننسى أن المنهج المسيحي في التفكير سابق على وجود الوهابية الفكرية مع اتحادها في الطبيعية الفكرية. وقد يعطي هذا تصورًا عن طبيعة النشأة والهدف.

الثالث: وهو أننا نقول بأن النبي يعلم القراءة والكتابة ولكنه لم يؤثر عنه كتابة معينة إلا عموم علمه بالكتابة. ولعله لم يكتب تعمدًا لدفع شبهة نسخ كتب أهل الكتاب وهذا لا

علاقة له بالعلم بالكتابة ولعل هذا هو معنى الآية الشريفة: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ} (العنكبوت٤٨).

أي لو كنت تقرأ في كتبهم وتكتبها بيدك لارتابوا من دينك، ولكنهم يعلمون بأنك لم تنسخ كتبهم فلهذا لا يستطيعون بث الارتياب من هذه الجهة. وهذا تصريح قرآني واعتراف بأن النبي لم يقرأ كتب النصارى واليهود وهو تحرّز من شبهة قد تقوم، وهنا أرى معجزة حقيقية لأن هذه الدعوى لم يكذبها أعداء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في حينه، وهي قائمة بزمنه وبين ظهرانيهم، فيكون القرآن الذي يتعرض لقصصهم بعيدا كل البعد عن أصول تلك الديانات ويكون هو المعيار لصدق وكذب ما ورد فيها من قصص.

وقد ذهب الشيخ المفيد إلى احتمال عدم إحسانه القراءة والكتابة قبل النبوة أما بعدها فقد علمها، وهو رأي قسم من الشيعة ممن يفرّق بين علمه بها قبل النبوة فلا، وبعدها فنعم. والذي أراه أنه لم يمارسها وليس لم يعلمها وهذا مقتضى الاحتجاج في الآية، وهي لا تنفي العلم، والله العالم.

الرابع: الأدلة على كونه يقرأ ويكتب هي:

أولاً: وجود روايات معتبرة بهذا المعنى منها رواية علي بن أسباط ومرسلة الصوفي التي ذكرها في الفصول المهمة وهذا نصها:

١ – محمد بن الحسن الصفار في بصائر الدرجات، عن أحمد بن محمد عن أبي عبد الله البرقي، عن جعفر بن محمد الصوفي، قال: سمعت أبا جعفر محمد بن علي الرضا ع، وقلت له: يا بن رسول الله لم سمي النبي، الأمي؟ قال ما يقول الناس؟ قلت: يقولون: إنما سمي الأمي

لأنه لم يكتب فقال: كذبوا، عليهم لعنة الله، أنى يكون ذلك والله تعالى يقول في محكم كتابه: {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة} فكيف يعلمهم ما لم يحسن؟ والله لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ ويكتب باثنين وسبعين لسانًا وإنما سمي الأمي لأنه كان من مكة ومكة من أمهات القرى وذلك قول الله في كتابه: {لتنذر أم القرى ومن حولها}.

الفصول المهمة ج ١ - الحر العاملي ص ٤١٢: باب ١٠٣ - إن النبي (ص) كان يقرأ ويكتب بكل لسان.

ثانيًا: «ومن الدليل على ذلك أن الله تعالى جعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم حاكمًا بين الخلق في جميع ما اختلفوا فيه فلا بد أن يعلمه الحكم في ذلك، وقد ثبت أن أمور الخلق قد يتعلق أكثرها بالكتابة فتثبت بها الحقوق وتبرئ بها الذمم وتقوم بها البينات وتحفظ بها الديون وتحاط بها الأنساب، وأنها فضل تشرف المتحلي به على العاطل منه، وإذا صح أن الله - جل اسمه - قد جعل نبيه بحيث وصفناه من الحكم والفضل ثبت أنه كان عالمًا بالكتابة محسنًا لها» أوائل المقالات للشيخ المفيد ص ١٣٦. ولعل من هذا الباب الحاجة لمعرفة العقود والكتابات الشخصية.

وثالثًا: عدم قيام دليل قطعي على وجود هذا النقص في الرسول (وهو جهل القراءة والكتابة) بل الظروف التاريخية ضد هذا الادعاء فهو من أسرةٍ تقرأ وتكتب وهو معلّم الإمام علي والإمام علي يقرأ ويكتب، ولم يثبت لنا تعليم غير الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للإمام علي عليه السلام.

الخامس: لعل من المفيد التوقف عند آيتين تدلان على أنه لا يقرأ ولا يكتب، كما يقول المفسرون وهم يستدلون بقوله تعالى:

{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي (الأُمِّيِّينَ) رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ} (الجمعة/٢).

{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ (الأُمِّيَّ) الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ} (الأعراف/١٥٧).

باعتبار أن الأمي والأميين وصف لمن لا يقرأ ولا يكتب.

وهذا المعنى بهذا الشكل لا يستقيم لأن معنى الآية الأولى سيكون أنه بُعث لمن لا يقرأ ولا يكتب وهو رجل منهم لا يقرأ ولا يكتب.

فهو رسول الجهلة بالقراءة والكتابة!

وهذا المعنى غريب حقًا.

روايتنا تقول أن المعني أنهم أهل مكة أو بني هاشم أو بني إسماعيل.

وهذا الكلام صحيح ١٠٠٪ وذلك لأن مكة تسمى أم القرى فيصح نسبة الأميين لها، ولأن اليهود يسمون بني إسماعيل والعرب الأميين والأمميين.

وفي مطلع شبابي طالعت كتابًا يحاول إثبات أن الرسول أمي بمعنى لا يقرأ ولا يكتب، ليثبت عظيم المعجزة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والكاتب شيعي معروف. فقررت تتبع الكلمة فوجدت أن اليهود يسمون غير اليهودي بالأممي أو الأمي فراجعت العهد القديم والعهد الجديد فتأكدت أنهم يطلقون لفظ الأممي على كل من لم يكن من بني إسرائيل. وهذا يفسر الآيات جيدًا فيكون معناها بعث في غير اليهود رجل منهم وهذه قضية مستغربة عند اليهود لأنهم يعتقدون أن لا نبوة في غيرهم، وكأنها حكر عليهم، وبهذا المعنى يمكن تفسير الآيات الأخرى التي تعرضت للأمّيّن حيث تدل على أنهم غير بني إسرائيل وهي الآيات:

قوله تعالى: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (آل عمران/٧٥).

ومعنى (قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ) أي هم ليسوا منا ولا نلتزم تجاههم بشيء وهذا المعنى ذكر أيضًا (وذهب أبو علي إلى أن قولهم: ليس علينا في الأميين سبيل، إنما يعنون به ليس علينا لهم سلطان ولا قدرة، فلا يجب علينا أتباعهم ولا النزول تحت حكمهم، يريدون بذلك النبي (صلى الله عليه وآله) وأصحابه، فلذلك استحلوا أموالهم.) تفسير التبيان ج ١ ص ٢١٣.

وقوله تعالى: {فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} (آل عمران/٢٠).

وهنا المعنى الذي ذكرناه يوضح أن الأميين قسيم لأهل الكتاب (أي قسم آخر غيرهم)، فالآية تشير إلى عموم الدعوة الإسلامية سواء لبني إسرائيل أو غيرهم من الناس. فمن آمن فقد اهتدى بهدى الله ومن تولى فالله بصير بالعباد.

وقد استدل بعض العلماء بقوله تعالى {وَيُزَكِّيهِمْ [وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ] وَالْحِكْمَةَ} بأنه يستحيل أن يعلّم وهو لا يعلم الكتاب. والكتاب هو المكتوب وهذا نص على معرفة الكتابة، ورد بعضهم بأن التعليم قد يراد به التلاوة من الحافظة، ولكن هذا بعيد في معنى الكتاب وتعليمه خصوصًا إذا تمعنا قصة عرضة القرآن والعرضة الأخيرة ومصحف حفصة الذي ورثته من النبي ولعله بخط النبي نفسه، وعلى كل حال لا ينكر الاستيناس بهذا المعنى لمعرفة المكتوب في الكتاب. وكل ما قيل من أدلة عدم المعرفة بالكتابة مثل أنه لم يعرف المكتوب في كتاب علي يوم الحديبية حتى وضع إصبعه. فهي قصة غامضة وغير دالة. فلعله قال له أين كتبت هذا الكلام؟ وعلى كل حال تحتاج القصة إلى ألف دليل لتثبت، لأن فيها الكثير من الغمز بالنبي وعلي .. وظهور أبطال عقائديين أفضل من النبي في ذلك الموقف! فيحمل هذا على ذاك.

فلا حاجة لما يقوم به المسلمون من استماتة لإثبات أمية الرسول بدون دليل قوي، لأن إثبات الأمية أو القراءة والكتابة لا تقدم ولا تؤخر، و لا دخل لها في تقييم عطاء الرسول، ولا يمكنها أن تكون دليلاً على إعجاز النبي كما يحاول الكثير من المسلمين تأكيده،ويقولون أن القول بعلمه بالكتابة يسقط هذا الإعجاز كما يفهمون.

ولا يمكن أن يكون علمه بالقراءة والكتابة دليلاً على عدم النبوة وأنه مجرد قس مسيحي ضل طريقه كما يريد تصويره النصارى في هذا الزمان لإيقاف موجة (الأسلمة)

وتغيير الدين التي لا يقبلون بها ويتهمون المسلمين بالتعصب وأن أحكام الردة غير إنسانية بينما هم يحكمون على من يرتد بالقتل كما فعلوا قبل مدة في مصر، ويحاولون تثبيت أبنائهم بالكذب والجهل فهم يوحون لأبنائهم بأن النبي محمد كاذب لأنه يقرأ ويكتب. فما علاقة هذه بتلك؟

ونحن نقول القراءة والكتابة لا تصنع نبيًا .. فأغلب أغبياء الأرض الآن يقرؤون ويكتبون حتى وصلت الكتابة لقرن الشيطان وبهائم الصحراء ففقدت رونقها وأصبحت سيفًا على رقاب الشرفاء.

بينما كل علماء العالم لم يستطيعوا أن يأتوا بما أتى به النبي محمد رغم علمهم بما هو أبعد بكثير من القراءة والكتابة، وهذا الكلام لا يفهمه جاهل وإنما لأنه متعلق بالعلماء فيفهمه أهل العلم الذين يدرسون العلوم التي صدرت من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فمن يريد أن نفهمه هذا الكلام عليه أن يدرس الفقه والعقيدة والأخلاق والتاريخ وكل زوايا وخبايا العلوم التي تطرق لها وعلى الأخص الفقه وعليه أن يدرس القرآن بطريقة الحصول على معنى، بجمله على بعضه، وتبيان النصوص له، لا بطريقة ضرب المتشابه بالمتشابه فيكون بلا معنى. وأن يتمعن في معنى السعادة الإنسانية بالتقيّد بالشريعة السمحاء الخالية من إلزامات التحريم الشخصي كما يفعل بني إسرائيل أو إلزامات الرهبنة كما يفعل القسس.

الحوار

المعجز في القرآن الكريم

الأخ الأشتر* وفقك الله،

* كان الأشتر قد كتب:

الحياة الروحية التي يعيشها شيعة أهل البيت عليهم السلام فيها إشراقات تكشف لنا عن الرؤية الكاملة لخط الصراع بين الحق والباطل، فالشيعي المخلص يعيش مع رسول الله ومعاناته وظلامته في نفسه وأهل بيته، إذ أن هناك مزجاً وترابطاً عجيباً بين واقعنا اليوم وعلاقته بظلامة الرسول وآل بيته. فالمشكلة أن البعض يتصور أن المعجزة هي القرآن والرسول الكريم مجرد ناقل لا أكثر!

هم لا يعلمون أن رسول الله روحي فداه أتى لينقل الناس من حياة البادية التي يعيشونها ولا يزالون، إلى حياة مدنية تمتاز بواقع التمدن والتحضر – ونحن لا نقصد بالمدنية بالمصطلح المعمول به لدى الغرب.

إن الإنسان مخلوق عظيم، والمتأمل في القرآن والدارس لواقع سيرة حياة الرسول لوجد أن الفرد منا محط أنظار الملائكة والعوالم الأخرى، فهو بعمله مؤثر في الكون وفي المستقبل .. والتأثير يكون بالعمل تارة، وبالاعتقاد تارة، بل حتى النية والكلمات لها تأثير .. فالإنسان بعمله قد يهز عرش الله! وقد يتفوه بكلمة، يفرح لها ملائكة الله وتحتفل بل أنه يضمر النية لعمل ما فتفوح رائحة جيفتها لسابع أرض!

(اللهم طهر قلبي من النفاق ولساني من الكذب وعيني من الخيانة)

الرسول الكريم أراد للفرد منا أن يتحمل عقله المسؤلية بصورته الشاملة والواسعة، ومن دون ضيق أفق وهو بذلك روحي فداه أراد لنا أن نحفظ أصالة عقيدته ... ولكن هجمات الوهابية تحول دون وصول هذا المعتقد الخالص للمسلمين جميعاً، فهم بتفسيرهم المادي الشبيه بنظرة الغرب المادي يريدون هدم الإسلام ومن الداخل، هم يريدون أن لا نؤمن بالرسول الأكرم بذلك الإيمان الواسع، إن الرسول جسد لنا الإيمان بأمور عديدة وعلمنا نمط الإيمان به والتعامل معه، فكان لهذا

القرآن معجزة بحد ذاته. ومعرفة حقيقة إعجازه يحتاج إلى معجزة، ولكنني اتفق معك في عدم اعتبار المعجزة قائمة في الأسلوب فقط أو نفس النص، إذا كان يقصد به مجرد البيان والبلاغة.

ولكن ما هو المعجز في القرآن؟

أعتقد بأن عدم قدرة أهل الكتاب على الاستجابة للتحدي حين نزول القرآن، يعتبر دليلاً دامغًا على عدم القدرة على الإتيان بمثله وهذا معجز حقاً، و يجب أن يدرس هذا بمعزل عن فهمنا المعاصر لمفردات اللغة وأساليبها لأننا بعيدون عن القدرة على استيعاب اللغة، وقد بان بُعد المجتمع الإسلامي عن اللغة العربية في زمن أمير المؤمنين عليه السلام حين طلب منه أبو الأسود الدؤلي أن يضع قواعد لتقويم لسان الناس، بعد اعوجاجه نتيجة انتشار الإسلام ودخول مجتمعات أعجمية عليه. وقد توضّح بشكل جلي في الفترة العباسية حيث أصبحت اللغة العربية تختلف تمامًا عن العهد القرآني.

النمط الأهمية ليس فقط في القول النبوي الذي فهموا ظاهره – بل حتى تجسيد الرسول وما استوعبه أهل بيته والحواريون من أصحابه وأتباعه ... فالأصالة الإسلامية لا تأتي فقط من ظواهر النصوص ومحاولة فهمها على طريقة البلهاء!

الذي أريد أن أصل إليه هو أنه لا بد من ملاحظة نمط تطبيق الإسلام وتجسيده بما توارثته أجيال المسلمين عن النبي وأهل بيته، وهذا بحد ذاته فن!

حيث لا يكتفي فيها قراءة النصوص والكتب بل حتى القرآن الذي يتبحبحون بحفظه وتعيير الشيعة بذلك لا يكفيهم، فهو فن كفن صناعة السجاد وفن البناء وغيره... فالتلقي وكيفية الاتصال بتلك السلسة التي عايشت ومارست هذه الفنون هو المهم وهو ما يقصد بـ سيرة المتشرعة ونحن سلفيون بهذا المعنى ونقدس السلفية التي تعني بنمط التطبيق الخاص للإسلام المحمدي الأصيل أكثر من تلك السلفية الشكلية التي جمد أصحابها على الأشكال فقط.

إن عدم استجابة المشركين، وأرباب الأديان المحيطة والمعادية للرسول في ذلك الوقت، للتحدي بالإتيان بمثله، لهو دليل قاطع على عدم تمكنهم من إدارة صراع فكري مع القرآن، وذلك لوجود كل مقومات الاستجابة للتحدي من وفرةٍ وتمكنٍ في اللغة، ومن تبحر في الديانات ومن عداء للإسلام ومن محاولة حثيثة لإبطال نبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم. بل وصفوه بأنه كتاب ليس من صنف كلام الناس ولا الجان.

وهذا يجعلنا نسأل عن طبيعة المعجزة في القرآن، وقد اختار اغلب علماء المسلمين أن المعجزة بلاغية وهذا لم يثبت، واختار بعضهم الصرفة، لعدم ثبوت معجزة بلاغية في بعض الآيات كآيات سورة الفاتحة والإخلاص والناس والفلق وغيرها، ومعنى الصرفة أن الله يصرف من يريد تحدي القرآن بقوته وقدرته، ولكن هذا غير صحيح، فقد تصدى الكثير لوضع قرآن مناهض للقرآن وقد فشل وتحول إلى أضحوكة واختفى قرآنه من التاريخ كمحاولة ابن أبي العوجاء وابن المقفع وقريبا قبل ١٢٠ سنة كان قرآن هاشم العربي النصراني المعارض وغيرها مما لا يحضرني. فلم يكن في الحقيقة هناك صرفة بالمعنى الدقيق، ولكن كل من حاول فشل رغم القوة البلاغية والعلمية لبعض الأسماء المذكورة.

وقد نأتي مستقبلاً إلى التصورات الحقيقية لمعجزة القرآن ولعلّي أميل لحد الآن إلى كون المعجزة هنا ليست لعامل واحدٍ، وإنما هي عوامل كثيرة وكبيرة لا تحصر. يجمعها كلمة (شمول) لأن شمولية القرآن عجيبة، فسورة الفاتحة معجزة لأنها أداة معرفية، تكوّن هوية عظيمة لتختصر مفهوم الإسلام بدون اختزال لمعطياته.

وهناك أمر قد نبحثه، وهو مهم وله دخل في المعجزة، يتعلق بقيمة المحكم والمتشابه في القرآن، الذي يعتبره من لا خبرة لهم في الوقت الحاضر مسقطًا للقرآن من الداخل، أمثال

يوسف سمعان وعوض سمعان الكاتبان المكلفان لرد القرآن وتهديم كيانه الديني، فقد اعتبر هذان القسان إن وجود المتشابه منقصة للقرآن تفرّغه من معناه، وهذا يوافق رأي المشركين السلفية قبحهم الله كما يفعل الأستاذ الفلينة النسر* وغيره بنفي المعاني اللغوية في القرآن والحديث، باستخدام المتشابه بل صرّح النسر أن لا قدرة للسان العربي على تعيين خليفة للرسول لأنه لا يوجد أي تعبير يدل على النص الحقيقي للخليفة. وكل هذا نتيجة الاشتراك اللغوي والتخالف في المدلول اللغوي (التشابه).

هذا الموضوع يحتاج إلى دراسات معمقة وإلى وضع النقاط على الحروف، ولكن الجواب الطريف الذي انقدح في ذهني والذي أجيب به القسين هو:

إذا كان المتشابه يحطم القيمة النصية نهائيًا للقرآن فما هو المحكم الذي في سفر نشيد الإنشاد مثلاً؟

وهل من المحكم وصف أهل غلاطية بالأغبياء، لأنهم يعملون بشرعة الله وناموسه ولا يصنعون المعجزات (القوات)، إذن لماذا يطالب المسيحيون الالتزام بالمسيحية إذا كان الالتزام بالشريعة غباء؟

بينما في متي ٥:١٧ (لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمّل). وهذا الكلام يفهمه المؤلفان المذكوران.

ومن أجل عدم فتح مجال للف والدوران في هذه القضية نقول إن المعجزة الحقيقية هي النبي نفسه، وبعد ذلك فكل ما كان وسيطاً به أو صدر منه فهو معجز حقا بالتبعية (باستثناء

* محاور وهابي معروف في شبكات الانترنت، وللعلامة المنار مناقشات ومناظرات كثيرة معه مبثوثة في كتبه وفي الانترنت.

القرآن فله خصوصية)، لأن ظرفه البدوي المتخلف يستحيل أن ينتج مثله، وبما أنه نبع من هذا الظرف فهو معجزة حقيقية.

وما يقال عن السيرة الشخصية المشوهة يمكن تطبيقها على الطرف الأخر فتكون نفس النتيجة التي يرتقبونها، كما فعل اليهود في ادعاءاتهم على مريم وعيسى ويحيى، وهذا فساد في الفكر لا يقبل به عاقل، ولهذا نحن نحترم البابا الراحل يوحنا بولس الثاني الذي اعترف بالإسلام ديانة سماوية ثالثة ودعا المسلمين لتبوء مركز الدين السماوي في لجنة الحوار، واعتذر عن الحروب الصليبية الباطلة التي هي منشأ هذا الكلام، وهو يختلف عن دعاة الفرقة بما لا يفقهون من الكلام، فما يشكلون به علينا أشكله اليهود على سيدنا عيسى عليه السلام وبنفس الحيثيات وزيادة.

والسؤال المهم هو: هل النبي المعجزة هو نبي الحشويين أم نبي الشيعة؟

الناقدون للإسلام الحاقدون اعتبروا النبي الحقيقي هو نبي الحشويين الذي لا يمكن أن يكون معجزة لأنه لا يتصف بمواصفات إنسان سوي فضلاً عن كونه نبيًا.

ولهذا يدجّل بعض الناقدين للإسلام فيعتبر أن سيرة الرسول الشخصية لا تدل على أي معجزة في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باعتبار ما ذُكر من إساءات للرسول ولشخصه الكريم، كأن يكون يشتهي النساء حين تمر عليه امرأة فيدخل على زوجته ويواقعها ثم يخرج يخبر أصحابه بذلك وغير ذلك مما لا يعقل من رسول كريم.

إن هذه الروايات لا يمكن جعلها التعريف الحقيقي بشخصية النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، إنها روايات من لا يؤمن بعصمة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولن نسلم بها على أنها تحديد شخصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

نحن نتكلم عن رسول الشيعة صلى الله عليه وآله وسلم المعصوم، وعلى من يناقش الإسلام أن يناقشنا حول هذا الرسول لا حول رسول يتكلم الشيطان بلسانه ويقذف الشيطان في أمنيته ورغبته.

طبعا سيفرح بعض المشركين السلفية (فقهاء البوكيمون) فيقولون: ها أنتم تقولون أن نبينا غير نبيكم!

وها نحن نختصر عليهم الطريق لنقول أن مواصفاتكم للنبي لا تجتمع مع مواصفاتنا للنبي .. فالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي نؤمن به معصوم عندنا، وكل روايات الأمويين المشوِهة لصورته لا نؤمن بها، فنبيكم المشوه هو غير نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم السليم المعصوم المعجز. فأي معجزة فيمن يجن ويتكلم الشيطان على لسانه ويراقص زوجته علنًا، وعلى كل حال فهو غير معصوم عندكم، وهذا يكفي أن لا يكون هو نفسه نبينا النبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم ولعلكم تتكلمون عن شخص آخر لا نعرفه أو تكذبون على نبينا نبي الرحمة. قبحكم الله من كَذَبَة على الأنبياء كما فعل اليهود لعنهم الله.

وبهذه اللعبة المكشوفة يحاول بعض المتطفلين على العلم كالقسسة المذكورين وغيرهم التهجم على شخص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من خلال إنتاج الحشويين،

نافين أن يكون سلوكه الشخصي صلى الله عليه وآله وسلم معجزة بل هو أقل من إنسان عادي حسب هذه الروايات المكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (وبالصحاح طبعًا).

فكان هذا هو نتاج فعل الحشويين السيئ على نبينا وديننا الكريم. ولعلنا نقف متأملين لهذا التخادم العجيب بين الحشويين وبين الحاقدين على نبوة نبينا صلى الله عليه وآله وسلم من متطرفين بمختلف الديانات.

يا مشركي الوهابية إذا كان رسول الله بهذه الصورة فكيف تثبتون الإسلام من أساسه؟

أثبتوه لي رجاءً بغير عصمة الرسول الشاملة لأثبت لكم غباءكم وتعدّيكم على الإسلام. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولن نتجنى عليكم، وذلك لأنكم تمسخون شخصية الرسول فتمسخ أصول الرسالة ولن يكون الإسلام مقنعًا عبر الطريق الذي سلكتموه أبدًا.

إن دوركم في تحطيم الإسلام لا يقل عن دور أي عدو لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وللإسلام يعمل ليل نهار في سبيل إيقاف نمو الإسلام الحقيقي القائم على المعجزة الحقيقية، وليست معاجز الأرقام وغير ذلك، مما لا يثبت للنقاش أمام العلم فنتحول إلى أضحوكة جديدة.

على كل ما دخلكم انتم بالإسلام حتى نتوقع منكم كف الشر عنه؟ *

* وقد عقّب الأشتر على جواب العلامة المنار ببحث طويل، أنقله لفائدته، هو:

لا أنكر أنه وبعد قراءة متأنية للموضوع انصدمت بواقع خطير وهذا لمن أراد التفكر والتدبر!

يا ربي، سؤال لا يغادر مخيلتي:

هل السبيل إلى فهم شخصية الرسول يكون بفهم نفس القرآن ومحاولة استيعاب ولو قدر بسيط من علمه؟

ثم هل الطريق إلى فهم القرآن يكون بدراسة ومعرفة جوانب حياة هذا الرسول المعجز!؟

ما هو المفتاح والسر الذي يمكن خلاله الانفتاح أكثر على القرآن الكريم والنبي – صلوات ربي عليه – معاً؟

هل السر والمفتاح في الإيمان بالغيب؟ أم هو شيءٌ آخر؟

لمحت في مقالتي السابقة إلى أن بعض أصحاب الملل الباطلة يعيرون الشيعة بحفظ القرآن، وقلت أيضاً بأن هذا الحفظ الذي يتبجحون به وواقع حالهم لا يكشف لنا إلا عن عالم محدود ضبابي وخامل لا يستحق أن يسمى عالماً ليعيش الإنسان فيه.

والطريف أن نفس هذه الفرقة التي تستدل بصفات معبودها الأشقر! من القرآن الكريم، وفي الوقت نفسه نجد أنها الفرقة الوحيدة التي قصفت بسيرة وسمعة النبي المعجز!؟

هل هناك علاقة بين ما طرح وبين واقع حال السذاجة الفكرية التي يعيشها هؤلاء ؟

المنار يدعوا إلى تأملات في طبيعة المعجزة (القرآن الكريم) وشخصية الرسول (المعجز) والنواصب من المتمسلفة تلاعبوا بمعنى وألفاظ القرآن المعجز وقصفوا بسمعة النبي المعجز؟!

هم حفظوا القرآن ومن ثم حاصروه وضيقوا الخناق عليه، والرسول الأكرم صلوات ربي عليه وآله قال رداً على زياد بن لبيد: ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون منهما بشيء!؟

حيلة قذرة منهم وانطوت على أكثر البلهاء منهم فاعتقدوا بأن مجرد قراءة القرآن في الهواء الطلق هو الغرض الحقيقي!

أقول: رحم الله سعيد أيوب فقد قال في أكثر من موضع:

العيب أن تكون للرأسمالية والاشتراكية خرائط، وأن يكون لمحمد المباخر والتمائم والتعاويذ!.انتهى.

مظلومية ما بعدها مظلومية للقرآن! إذ كان نتاج هذا التفكير السطحي ظهور تلك التيارات التي تدعي بأن الإسلام غير قادر على مواجهة الواقع وليس في القرآن الحلول المناسبة! ←

سألت أحد الفضلاء عن الانتفاع من القرآن فقال لي: ينتفع بخضوع العقول له!

جوابه على السؤال حيرني أكثر، لكن بعد مدة تبادر إلى ذهني فكرة أن القرآن يعطي على حسب النتاج الفكري للأشخاص، وكما يقال فإن لكل شخص رصيده الخاص ولكل عقل قدر من الفهم والاستيعاب.

نعم القرآن معجزة ليس من مدخل البلاغة والإعجاز الكلامي فقط، وكما أسلف المنار فإن إعراض المشركين لم يكن بسبب ذلك مع وفرة وتمكن في اللغة. وهذا الجانب هو الذي يحتاج إلى دراسة وبحث، وهو صلوات الله وسلامه عليه وآله تحداهم بأن يأتوا ولو بسورة من مثله، فعجزوا – مع الوفرة والتمكن لغوياً – وعمدوا إلى قتل النفس وبذل المال في سبيل إبطال الدعوة. وابن المقفع – أفصح أهل زمانه وعصره – عجز عن الإيتان بنصف آية، ولم يبلغ غاية المعرفة في مضمون قوله تعالى: وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي.

التفكر في أن الذي أتى بالقرآن لم يثبت أنه تلقى تعليماً من قبل الدعوة. ولهذا تطرق القرآن إلى هذا الجانب على أنه إعجاز من نوع مختلف كما قوله تعالى: وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون.

والتفكر في أن الذي أتى بالقرآن وكما أسلف بعض الإخوة تلاه على الناس طيلة ثلاث وعشرين سنة وفي مختلف الظروف من دون اختلاف أو تعددية في اللفظ أو الأسلوب، وكما قيل فإن من يؤلف وفي ظروف عادية متماثلة يختلف ويتدرج في الكلام مع مراعاة التطور في الأسلوب والبيان والبلاغة. (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً).

كل هذا يجعلنا نتفكر في شخصية هذا المعجز صلوات ربي عليه وآله

فالرسول الأكرم لم يأت بمعاجز وخوارق أعاجيب تشل العقول وتهول الضمائر كي يخضع الناس من حيث يخافون ويهابون بل كانت معجزة تخاطب عقولهم وتدفعها إلى التحدي وإثبات أن القرآن من صنع إنسان، ومع ذلك عجزوا.

والطريف هو أنني في خضم التفكير في ذلك كله تبادر إلى ذهني نكتة مهمة وهي أن أعلام الفصاحة والبلاغة انقرضوا ولا نرى أثر منهم اليوم إلا أن القرآن باق ببلاغته وفصاحته!

الشيخ الكوراني ينقل في كتاب الحق المبين عن شخصية رسول الله صلى الله عليه وآله:

إن شخصيته مركبة من جنبة بشرية يعاملنا بها، وجنبة غيبية يتلقى بها الوحي والعلم من رب العالمين.

أقول: يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن:

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ

ويقول في موضع آخر:

وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ←

ما العلاقة بين الآيات الواردة وتركيبة شخصية النبي محمد صلوات الله وسلامه عليه وآله؟ الاتجاه التفسيري العام للآية الأولى يتحدث عن تعظيم القرآن والخشوع والتدبر حال قراءته، والآية الكريمة تتحدث عن عظمة القرآن بحيث لو أنه نزل على جبل لتصدع من هذه العظمة!

بلغ القرآن من العظمة بحيث أن به تسير الجبال وتقطع، فماذا لو أنزل هذا القرآن على شخصية بشر عادي حاله من حالنا يأكل ويشرب وينام!؟ ثم هل الجنبة الغيبية التي يتلقى بها الرسول الكريم الوحي والعلم من رب العالمين مختصة فقط بالوحي النازل من دون التأثير على السلوك العام للنبي؟

مهم جداً أن يعرف المرء الاتجاه الصحيح في فهم النبي صلوات الله وسلامه عليه وآله، وقد بين الشيخ الكوراني في كتاب الحق المبين باختصار بعض الاتجاهات في فهم ذلك.

البعض – أخزاه الله – يقول بأن محمد مات وأن عصاته التي يتوكأ عليها أنفع من محمد، فما الفرق بين من هو أعمى البصيرة والقلب وبين ذلك العامي العجوز الذي رسم لوحة فنية بكلمات بسيطة بليغة أمام ضريح رسول الله فبكى وأبكى الحضور أمام عيني!؟

لا تدرون كم انصدمت عندما قال لي أحدهم بأن هناك جوانب من شخصية الرسول تكشف لنا عن اجتهادات شخصية منه وهي ثمرة لإعماله لعقله وقدرة ملكاته البشرية، ولعل أكثرها كان يصيب الصواب! ولهذا كان الصحابة يصوبونه ويبينون أخطائه! (عجبي يحسبون أن النبي مجتهد حاله كحال عمر!).

ما الفرق بين هؤلاء وبين العامي العجوز!؟

أهو العيش في عالم متنوع واسع مع الله والنبي وأهل بيته!؟ وكيف يكون هذا العالم فاعل في حياة هذا العامي بحيث يعطيه هذا الإحساس ويجعله يعيش مع الرسول فصار الأخير مشارك للأول قلبه وإحساسه!؟

أهو العالم الروحي؟ أم هو إيمانه المطلق بالغيب؟ أم تصديقه للرسول الرسالة بالمعنى الشامل؟ و...و...الخ

ثم ما علاقة الغيب مثلاً بفهمنا الصحيح للرسول صلوات الله وسلامه عليه وآله؟

كل هذه التساؤلات تخطر على البال بمجرد التفكير في أن إيماننا بالرسول والرسالة ليس سوى مجرد تلقي عن الآباء والأجداد، فما هو تعريف عوام الشيعة لكل ذلك مثلاً؟ وما هو تعريف من تعرف على الإسلام بعدما كان كافراً فأشهر إسلامه عن قناعة دينية؟

كيفما كان فإن أبعاد القضية تختلف بحسب نظرتي القاصرة ولعل ما طرح من تساؤلات يبين ذلك، ولكي لا أخرج كثيراً عن أصل الموضوع أطرح ما لدي بحسب ما فهمه عقلي القاصر من منظور الشهيد مرتضى مطهري رضوان الله تعالى عليه.

إذ يرى أن معرفة القرآن لكل شخص بعنوان الإنسان العالم أو تحت عنوان الفرد المؤمن أمر واجب وضروري. ←

فالقرآن الكريم أتى ليغطى جميع جوانب حياة الفرد فكان ولا يزال شمولياً لا يحتاج إلى مصدر آخر مكمل له – ونحن نعني بالمصدر ما هو المتعارف عليه لغوياً أي المصادر الكتابية – فالمعصوم قطعاً يعتبر جزء مكمل للقرآن من ناحية بيان أسراره وتعليم الناس مفرداته ومضامين آياته وإرشادهم لما يكون نهجاً لسير حياتهم بشكل عام وشامل.

وعليه فضرورة معرفة القرآن واجبة من جهة كونه المنبع الأساسي للدين والإيمان وهو كما وصفه الشهيد مرتضى مطهري رضوان الله تعالى عليه: هو الذي يهب الحياة حرارة وروحاً حرمة معنى.

إذا فهو المبين والمرشد للناس ومعلمهم الأصول التربوية والخلقية والأنظمة الاجتماعية بالإضافة إلى شمولية تامة وعامة لجميع جوانب الأمور الحياتية على مستوى الأفراد والجماعات.

أما من ناحية أخرى فإن أصل الإشكال ليس من مورد كون القرآن أتى به محمد فهذا مما سلم به المستشرقون وغيرهم بل أصل الإشكال في ما إذا كان ما أتى به محمد من عند رب العالمين أم هو من عنده.

يقول الكاتب المسيحي المستبصر علي الشيخ صاحب كتاب هبة السماء:

«كما ذكرت سابقا فإن المسيحيين ينظرون إلى القرآن الكريم على أنه كتاب من نتاج وفكر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا علاقة له بالوحي والسماء. ولا شك في أن اثنين منهم لا يختلف في هذه العقيدة وعلى اختلاف مذاهبهم، وهذا أمر بديهي لأنهم ينكرون نبوة النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، فلذا من الطبيعي أن يرفضوا الكتاب الذي جاء به، وقد أشربت هذه العقيدة في نفوسنا وأذهاننا منذ الصغر وكثيرًا ما كانوا يحذروننا من مطالعة هذا الكتاب لأنه (والعياذ بالله) فيه ضلالة وإساءة للديانة المسيحية ومقدساتها».

والبحث حول ذلك طويل تتداخل فيه مباني ونظريات عديدة منها ما هو فلسفي ومنها ما هو علمي وبلاغي وإعجازي و...و...و وغير ذلك من الأدلة التي يستدل بها العلماء على أن القرآن معجزة إلهية لم يأت بها محمد ولا غير محمد من عنده.

لكن الشهيد مطهري رحمه الله يرى بأن إثبات ذلك يكون بعد إجراء مطالعة تحليلية شاملة لمحتوى القرآن ككتاب مستقل ومقارنته مع ما هو موجود في ذلك العصر وخصوصاً الدينية منها.

مع مراعاة بعض الشروط والمعايير التي ينبغي التنبه إليها مثل التطور الحضاري لبيئة شبه جزيرة العرب ومدى تقدم العلوم والحضارة لديهم من جهة، ثم علاقة هؤلاء بسائر البلدان وبقية الحضارات التي استوطنت شبه الجزيرة العربية وتلك القريبة من تلك المنطقة، ومن ثم مراعاة عدد المتعلمين ممن كان يعيش هناك (خصوصاً مكة أم القرى) وذلك لمعرفة أو استنتاج عما إذا كان ما في القرآن من مادة شاملة موجود لدى بقية الحضارات أو الكتب الأخرى الموجودة في ذلك العصر.

أي بمعنى آخر التأكد من عدم كون معارف القرآن ملتقطة ومقتبسة من حضارة أو كتاب آخر، فإذا سلمنا من هذا المبحث كان توجهنا إلى المبحث الأهم وهو أصالة القرآن من جهة كونه إلهيا، وكون كل ما جاء به محمد صلوات الله وسلامه عليه وآله كان من مكان أعظم وأكبر أفقاً من أفكار الرسول ومن كان معاصراً له في تلك الحقبة. ←

والطريق لذلك كما أشار الأستاذ مطهري رحمه الله يتحصل عليه من المعرفة الجذرية للقرآن وهي بدورها مبنية على ما ذكر أعلاه من عدم كون النص ككل ملتقط أو مقتبس من جهة أخرى بشرية أو حتى شيطانية!

أما ذلك فأمره يسير وقد لمحنا إلى بعض منه في بداية المقالة أعلاه، وتحديه صلوات ربي عليه وآله لم يكن لقريش فقط بل كان لجميع من كان معاصراً لذلك العصر.

بل ينبغي التنبه إلى نكتة لطيفة وهي أن عرب قريش كانوا أهل فصاحة فجاء القرآن متحدياً بفصاحته، أما اليهود فقد عرف عنهم الإلمام بالعلوم الغيبية أو المغيبات وعن تاريخ الأزمان الغابرة والأنبياء بشكل عام إن لم يخب ظني وكان مستندهم في ذلك صحيح ما وصل إليهم من التوراة والإنجيل، فجاء القرآن متحدياً ذلك بأخبار غيب صحيحة قطعية وبأخبار وتاريخ أنبياء وحضارات أمم سابقة من دون تحريف أو تلاعب.

الاستدلال لطيف من ناحية المضمون لكنه يتعارض مع ما تفضل به الفاضل المنار:

بل يمكن أن تثمن عاليا بيتا للمتنبي أعلى من تثمين عشرة آيات قرآنية بسبب وقوع بيت الشعر وفق الضوابط لتلك العلوم أي وفق معيار الصناعة، وعلى الأخص علم البلاغة. بخلاف الآيات القرآنية، وهذه المشكلة يعرفها الضليعون في البلاغة .

وهذا يدل على أن عدم الاستجابة للتحدي مع وجود دواعيه لم يكن بسبب البلاغة والبيان وإنما بسبب أعمق منها بكثير.

وعليه فلا معنى لمن يستدل على أن البلاغة فقط كانت المعجزة، نعم لنا أن نقول عجز كفار قريش بأن يأتوا ولو بما هو شبيه بالقرآن وقريب منه معنى ولفظاً يدل على إعجاز بلاغي للقرآن من نوع لربما خفي عنا بسبب الضعف اللغوي والبلاغي لدينا في هذا الزمن.

فإذا كان الإعجاز البيان والبلاغة ليس هو السبب المباشر لعدم الاستجابة للتحدي، والإعجاز العلمي والطبي والاجتماعي وغيره إنما هو برأيي الخاص مما لم يكن ليثير اهتمام كفار قريش بل هو أشبه بإعجاز غيبي موجه للقرون المتقدمة والمتطورة – وهذا يظهر جلياً في الاكتشافات العلمية التي يتوصل إليها الباحثون ومن ثم بيان أن ذلك مما ذكر في القرآن الكريم منذ قرون طويلة.

من منظور فكري القاصر هو أن القناعة القلبية كما أشار أستاذنا المنار لعبت دوراً أساسياً خاصة إن قلنا بأن القرآن جاء موافقاً لأحاسيس وعواطف شريحة كبيرة ممن آمن وأسلم عن طريق هذه القناعة التي كان لشخصية رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وآله الدور الرئيسي في ترسيخها. ولهذا آمن البعض به حتى قبل أن يعرض عليهم معجزته.

إذا عامل التأثير الرئيسي بداية الأمر كان من النبي المعجز وليس من القرآن المعجزة، وعليه فإن محمد عليه وآله أفضل الصلاة وأتم التسليم معجزة بحد ذاته ولا أدري ما دور العصمة في ذلك كله، ولكن أنا على يقين بأن صدق محمد ونزاهته وأخلاقه وشخصيته الفريدة هي التي كانت عامل مباشر أثر على من آمن بنهج ورسالته هذا النبي. ←

فالرسول كان الإنسان الكامل الأفضل والأوجه والأحسن من جميع النواحي ولهذا عمد الطلقاء إلى تصوير ووضع كل ما يقابل ذلك – إذ القرآن يصفه بأنه صاحب خلق عظيم وهم وصفوه بأنه الغاضب العابس الشاتم الذي يلعن ويسب!

تعريف القلب!

يقول الشهيد مرتضى مطهري في تعريفه للقلب:

إذن ما هو المقصود من القلب؟ للإجابة على هذا السؤال يجب البحث في حقيقة وجود الإنسان. فالإنسان في الوقت الذي هو موجود واحد، إلا أن له مئات بل وآلاف الأبعاد الوجودية. "أنا" الإنسانية عبارة عن مجموعة كبيرة من الأفكار، والآمال، والخوف، والحب، و... وأنها بمثابة الأنهار والجداول، التي تتجمع في مركز واحد، وأن هذا المركز بنفسه بحر عميق، بحيث ما استطاع – إلى الآن – أي إنسان أن يدعي أنه اطلع على أعماق هذا البحر.

فالفلاسفة والعرفاء وعلماء النفس، ساهم كل إلى حد ما في السباحة في أغوار هذا البحر، ووفق كل منهم إلى كشف بعض أسراره، ولربما كان العرفاء أكثر حظا من الآخرين في هذا المجال.

وما يسميه القرآن بالقلب، عبارة عن حقيقة هذا البحر، وإن ما نسميه بالروح الظاهرية، عبارة عن الأنهار والجداول التي تتصل بهذا البحر. وحتى العقل بنفسه أحد هذه الأنهار التي تتصل بهذا البحر.

عندما يذكر القرآن الوحي، لم يقل شيئا عن العقل، بل أن علاقته ترتبط مع قلب الرسول (ص)، ومعنى هذا الكلام أن القرآن، لم يرد على الرسول بقوة العقل وبالاستدلال العقلي، بل، كان هذا قلب الرسول (ص)، حيث ارتقى إلى حالة لا يمكن لنا تصورها، وفي تلك الحالة حصل على قابلية أدراك ومشاهدة تلك الحقائق المتعالية، وها هي آيات سورة النجم وسورة التكوير توضح كيفية هذا الارتباط إلى حد ما، نقرأ في سورة النجم: {وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، علمه شديد القوى، ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى، ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، ما كذب الفؤاد ما رأى} : يقول القرآن ذلك، ليبين أن مستوى هذه المسائل فوق حيز عمل العقل الحديث هنا عن المشاهدة والاعتلاء. ونقرأ في سورة التكوير: {إنه لقول رسول كريم، ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين، وما صاحبكم بمجنون، ولقد رآه بالأفق المبين، وما هو على الغيب بضنين، وما هو بقول شيطان رجيم، فأين تذهبون، أن هو إلا ذكر للعالمين}.

ثم يقول الشهيد رضوان الله تعالى عليه في تصوير القناعة القلبية وعلاقته بالقرآن الكريم:

إن ما نسميه بالقلب هو عبارة عن شعور عظيم وعميق جدا في باطن الإنسان، ويسمونه أحيانا إحساس الوجود، أي إحساس رابطة الإنسان مع الوجود المطلق. فالذي يعرف لغة القلب ويخاطب الإنسان بها، يحرك الإنسان من أعماق وجوده، وعندئذ لا يبقى الفكر الإنساني تحت التأثير فحسب، بل ويتأثر كل وجوده. ←

وربما استطعنا أن نضرب الموسيقى مثلا، كنموذج عن لغة الإحساس، فأن الأقسام المختلفة للموسيقى تشترك في جهة واحدة، وهي علامتها المختلفة للموسيقى تشترك في جهة واحدة، وهي علامتها مع الإحساسات الإنسانية. تهيج الموسيقى روح الإنسان وتغرقها في عالم خاص من الإحساس، وبالطبع، فإن ضروب الهيجانات والأحاسيس تختلف مع اختلاف أنواع الموسيقى، فربما ارتبط أحد أنواع الموسيقى مع الشعور بالفتوة والشجاعة، فيتحدث بهذه اللغة مع الإنسان.

لقد رأيتم الأناشيد والمعزوفات العسكرية، تنشد وتعزف في ميادين القتال، ونرى أحيانا مدى تأثير هذه الأناشيد وقوتها، بحيث تجعل الجندي الذي لا يخرج من خندقه خوف الأعداء تجعله يتقدم إلى الأمام بكل الدفاع ويحارب الأعداء رغم الهجوم الثقيل للعدو. وهناك نوع آخر من الموسيقى يرتبط مع الشهوة (والشعور الجنسي) فيعرض الإنسان إلى الخمول والانقياد نحو الشهوات، ويدعوه ليستسلم للفساد.

وقد لوحظ أن تأثير الموسيقى كبير في هذا المجال، وربما لم يستطع أي شيء آخر أن يؤثر إلى هذا الحد، في القضاء على جدران العفة والأخلاق، وبالنسبة إلى سائر الغرائز و الأحاسيس أيضا، عندما يقال شيء بلسان هذه الأحاسيس - بواسطة لغة الموسيقى أو بأي وسيلة أخرى- فإنه يمكن أن يوضع تحت المراقبة والنظارة.

إن الشعور الديني والفطرة الإلهية من أسمى الغرائز والأحاسيس لدى كل إنسان، وإن علاقة القرآن مع هذا الإحساس الشريف علاقة أسمى وأعلى.

وبمناسبة الشعور المعنوي للبشر، هناك حديث لطيف إلى "إقبال" يقول فيه:

لا يوجد في هذا القول لغز ولا سر وهو أن الدعاء بمثابة وسيلة إشراقية نفسيه، عمل حيوي عادي، بواسطته تكتشف الجزيرة الصغيرة لشخصية مكانها في قطعة أكبر من العالم.

القرآن بنفسه يوصينا أن نقرأه بصوت حسن لطيف. وبهذا النداء السماوي يتحدث القرآن مع الفطرة الإلهية للإنسان ويسخرها (كان الأئمة (ع) يقرؤون القرآن بتلك اللهفة، التي ما إن يسمعهم المارة حتى يضطرون إلى الوقوف، والاستماع والتأثير والبكاء)

القرآن عندما يصف نفسه يتحدث بلسانين: فتارة يعرف نفسه بأنه كتاب التفكر والمنطق والاستدلال، وتارة أخرى بأنه كتاب الإحساس والعشق. وبعبارة أخرى فالقرآن ليس إذا للعقل والفكر فحسب، بل هو غذاء للروح أيضا.

يؤكد القرآن كثيرا على الموسيقى الخاصة به. الموسيقى التي لها تأثير أكثر من كل موسيقى أخرى، في إثارة الأحاسيس العميقة والمتعالية للإنسان.

يأمر القرآن المؤمنين بان يقضوا بعض أوقات الليل بتلاوة القرآن، وأن يرتلوا القرآن في صلواتهم عندما يتوجهون إلى الله، وفي خطاب للرسول يقول:

{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ، قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً، نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً} (المزمل - ٣). ←

الترتيل (الترتيل: قراءة القرآن بحيث تخرج الكلمات من الفم بسهولة واستقامة (مفردات الراغب) يعني: قراءة القرآن، بحيث لا تكون سرعة خروج الكلمات كبيرة، فلا تفهم الكلمات، ولا تكون متقطعة فتنفصم علاقاتها، يقول: قراءة القرآن بتأن في الوقت الذي تلاحظ في الوقت الذي تلاحظ محتو الآيات بدقة)

وفي الآية الأخيرة لتلك السورة يدعونا أن لا ننسى العبادة، في حال من الأحوال اليومية، وحتى في الأوقات التي نحتاج لنوم أكثر، مثل أوقات الجهاد أو الأعمال التجارية اليومية (قال تعالى: {علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرؤوا ما تيسر منه، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا...} سورة المزمل، الآية ٢٠)

الشيء الوحيد الذي كان سببا للنشاط واكتساب القوة الروحية والحصول على الخلوص وصفاء الباطن بين المسلمين، هو موسيقى القرآن. فالنداء السماوي للقرآن، أوجد في مدة قصيرة من المتوحشين (الجاهلين)، في شبه الجزيرة العربية شبعا مؤمنا مستقيما، استطاعوا أن يحاربوا أكبر القوى الموجودة في ذلك العصر ويقضوا عليها.

فالمسلمون لم يتخذوا القرآن كتاب درس وتعليم فحسب، بل، كانوا ينظرون إليه بمثابة غذاء للروح ومنبع لاكتساب القوة وازدياد الإيمان. فكانوا يقرؤون القرآن بكل إخلاص في الليل (يشير الإمام السجاد (ع) إلى هذه النقطة بقوله في دعاء ختم القرآن: "واجعل القرآن لنا في ظلم الليالي مؤنسا"، ويناجون ربهم تضرعا وخفية، وفي الصباح يهاجمون الأعداء كالأسود البواسل، والقرآن ينتظر مثل ذلك منهم، يقول مخاطبا النبي (ص):

{فَلاَ تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا} (الفرقان – ٥٢)

قف في وجوههم وجاهدهم بسلاح القرآن واطمئن بالنصر.

وقصة حياة رسول الله (ص) توضح صدق هذه الحقيقة: أنه يقوم وحيدا ودون أي ناصر، في حين يحمل القرآن في يده، ولكن هذا القرآن يصبح كل شيء له، يجهز له الجيوش ويعد له الأسلحة والتجهيزات الحربية، وأخيرا فإنه يدعو العدو إلى الاستسلام والخضوع أمامه. يدعو الأعداء ليستسلموا أمام رسول الله (ص)، وبهذا يصادق على الوعد الإلهي (وفي زماننا أيضا، تحقق هذا الوعد الإلهي الحق مرة أخرى، وجاء رجل من سلالة رسول الله (الإمام الخميني) مستندا إلى القرآن والأيمان كجده العظيم، وهزم جيش الكفر والباطل أكبر هزيمة).

عندما يعتبر القرآن لغته لغة القلب، فإن غرض من هذا القلب هو الذي ينسجم مع آيات الله ويتصفى ويثور. تختلف أيضًا عن لغة الأنغام والأناشيد العسكرية، التي تعزف في الجيش لتحيي فيهم الحماسة البطولية. أنها تلك اللغة التي تصنع من البدويين العرب مجاهدين قيل في حقهم: "حملوا بصائرهم على أسيافهم." أولئك الذين وضعوا أفكارهم النيرة ومعارفهم ومعنوياتهم على سيوفهم، ويستخدمون سيوفهم في طريق هذه الأفكار والعقائد. إنهم لم يهتموا بمصالحهم الشخصية وأمورهم الفردية. ←

وبالرغم من أنهم لم يكونوا معصومين، بل ويخطئون أيضا، إلا أنهم المصاديق الحقيقية للقائمين في الليل، والصائمين في النهار (قائم الليل وصائم النهار)، كانوا في علاقة مستمرة مع أعماق الوجود، تقضي لياليهم في العبادة وأيامهم في الجهاد (يصف أمير المؤمنين (ع) المتقين في خطبة تعرف باسم المتقين "خطبة ١٩٣ من نهج البلاغة"، وبعد أن يذكر أقوالهم ومعاملاتهم، يشرح أحوالهم في الليل ويقول: "أما الليل فصافون أقدامهم تالين لإجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا، يحزنون به أنفسهم ويستشرون به دواء دائهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طعما، وتطلعت نفوسهم إليها شوقا، وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم..."

يؤكد القرآن كثيرا على هذه النقطة التي تعتبر من خصائصه، وهي أنه كتاب القلب والروح، كتاب يثير النفوس ويسيل الدموع ويهز القلوب، ويعتبر القرآن هذه الميزة صادقة حتى بالنسبة لأهل الكتاب. يصف مجموعة منهم بأنهم إذا تلي عليهم القرآن تحصل لهم حالة خضوع وخشوع، ويقولون أنهم آمنوا بها في الكتاب، وأنه حق كله، يقولون ذلك وتزداد حالتهم خشوعا باستمرار.

ويؤكد في آية أخرى أن المسيحيين من أهل الكتاب، أقرب إلى المسلمين من اليهود والمشركين، كما في تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى} (المائدة/ ٨٢). ثم يصف القرآن جماعة من المسيحيين، الذين آمنوا بعد أن سمعوا القرآن، بقوله: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنْ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} (المائدة/ ٨٣). وفي مكان آخر، وعندما يتحدث عن المؤمنين، يقول في وصفهم: {اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ }(الزمر/ ٢٣). في هذه الآيات وفي آيات أخرى كثيرة ({إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَانِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} (مريم – ٥٨)، والآيات الأولى من سورة الصف) يوضح القرآن أنه ليس كتابا علميا وتحليليا محضا، بل إنه في الوقت الذي يستخدم الاستدلال المنطقي يتحدث مع إحساس الإنسان وذوقه ولطائف روحه ويؤثر عليه.

إذن فالموضوع يرتبط بشكل مباشر مع قناعة القلب بالرسول والقرآن الكريم

ومحاولة الربط بين ذلك أمر يحتاج إلى مقدمات تفصيلية، ولعل الفاضل المنار يساعدنا في ذلك في المستقبل القريب إن شاء الله تعالى.

بقيت أمور منها:

– الطريق لفهم القرآن بطريقة سليمة.

– الاتجاه الصحيح لفهم شخصية رسول الله.

أما القرآن الكريم فيذكر الشهيد مطهري رحمة الله تعالى عليه مقدمة لفهمه عن طريق شروط تؤدي إلى التعرف على هذا القرآن فيقول:

تحتاج معرفة القرآن إلى مقدمات وشروط نذكرها بإيجاز:

أحد الشروط الضرورية لمعرفة القرآن: معرفة اللغة العربية. وكما لا يمكن معرفة (أشعار) حافظ وسعدي، دون الإلمام بالفارسية، فإن معرفة القرآن المكتوب باللغة العربية دون معرفة اللغة العربية أمر محال.

الشرط الآخر: هو الإلمام بتاريخ الإسلام، لأن القرآن ليس مثل التوراة أو الإنجيل، إذا عرض كل منهما (وبلغ إلى الناس) مرة واحدة من قبل الرسول (موسى وعيسى)، بل، أن هذا الكتاب نزل طوال ٢٣ سنة من حياة الرسول الأعظم، من البعثة حتى الوفاة، وخلال الأوضاع المختلفة لتأريخ الإسلام المملوءة حركة وثورة، ولهذا نلاحظ هناك أسباب لنزول آيات القرآن، وسبب النزول لا يحدد معنى الآية، بل، وبالعكس فإن معرفة سبب النزول، يرشد ويؤثر كثيرا في توضيح مضمون الآيات.

الشرط الثالث: هو الإلمام بكلمات وأقوال الرسول الأعظم (ص).

ثم يقول رحمه الله في موضع آخر:

هناك نقطة لا بد أن نهتم بها في التحقيق حول القرآن، وهي أن نتعرف على القرآن بالاستعانة بالقرآن نفسه. وهي أن نتعرف القرآن بالاستعانة بالقرآن نفسه. والغرض من ذلك أن مجموعة آيات القرآن تكون مع بعضها بناء متراصا، أي أننا إذا أخذنا آية واحدة من آيات القرآن، وقلنا أننا نريد فهم هذه الآية فقط، يعتبر هذا أسلوب خاطيء، وبالطبع يحتمل أن يكون فهمنا لتلك الآية فهما صحيحا، ولكن هذا عمل مخالف للاحتياط، فآيات القرآن تفسر بعضها بعضا، وكما قال بعض المفسرين الكبار، فإن الأئمة الأطهار أيدوا هذا الأسلوب من التفسير.

القرآن له أسلوب خاص بنفسه في توضيح وبيان المسائل، ففي موارد كثيرة إذا أخذت آية واحدة من القرآن، دون عرضها على الآيات المشابهة، فإنها تأخذ مفهوما يختلف كليا عن مفهوم نفس الآية، إذا وضعت بجانب الآيات التي تشابهها في المضمون.

لعرض نموذج من هذا الأسلوب الخاص للقرآن، نستطيع ذكر الآيات المحكمة والآيات المتشابهة. هناك تصور ساذج بالنسبة للمحكمات والمتشابهات، فيعتقد البعض بأن الآيات المحكمة هي التي عرضت فيها المواضيع بصورة عادية وصريحة، والآيات المتشابهة بعكس ذلك، فإن الموضوعات فيها على صورة ألغاز ورموز. وبمقتضى هذا التعريف، يحق للناس أن يتدبروا في الآيات المحكمة والصريحة فقط، وأما الآيات المتشابهة فلا يمكن معرفتها، ويمنع التفكر فيها.

وهنا بالطبع، يطرح هذا السؤال نفسه: ما هي أذن فلسفة الآيات المتشابهة؟ لماذا يعرض القرآن آيات غير قابلة للمعرفة؟ الجواب بالإيجاز هو أن الآيات المحكمة ليس معناها الآيات الصريحة والواضحة، وليست الألغاز والرموز معاني للمتشابهات. اللغز لفظ مبهم، لا يفهم معناه مباشرة، والآن لننظر هل توجد في القرآن آيات مبهمة؟ ←

هذا القول ينافي نص القرآن الذي يقول بأن القرآن كتاب مبين في آياته، وأن آياته واضحة مفهومة، وجاءت لتكون نورا وهدى للناس.

إلا أن سر الموضوع، يكمن في بعض المواضيع المعروضة في القرآن خاصة، عندما يأتي الكلام عن ما وراء الطبيعة والأمور الغيبية فإنها غير قابلة للبيان والتوضيح أساسا مع الألفاظ.

ولكن بما أن لغة القرآن هي اللغة المتداولة بين البشر، فإن هذه المواضيع المعنوية اللطيفة، وردت بنفس العبارات والألفاظ، التي يستخدمها البشر في الموضوعات المادية. ولكن لتجنب سوء الفهم، فإن المسائل الواردة في بعض الآيات لا بد أن تفسر بمعونة الآيات الأخرى، ولا يوجد سبيل آخر غير هذا السبيل.

فمثلا يريد القرآن أن يذكر حقيقة ادعاء رؤية الله بالقلب (أي الإنسان يستطيع أن يرى الله بقلبه)، ورد هذا المعنى في قالب العبارات: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} (القيامة – ٢٢-٢٣). استخدم القرآن لفظة "النظر"، لأنه لا توجد كلمة أنسب من هذه الكلمة، لأداء الغرض والمقصود، ولتجنب الاشتباه يوضح في مكان آخر: {لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِير} (الأنعام – ١٠٣). يلاحظ القارئ أنه بالرغم من التشابه اللفظي، لا يوجد تشابه بين هذه الأمور، ويختلف كل عن الآخر اختلافا كاملا. والقرآن – لتجنب الخطأ بين المعاني العالية والمعاني المادية – يأمرنا بإرجاع المتشابهات إلى المحكمات:

{...أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ...} (آل عمران – ٧)

بعض الآيات محكمة، أي أن لها ذلك الاستحكام، الذي لا يمكن فصلها عن معانيها، واتخاذ معان أخرى لها. هذه الآيات هي أم الكتاب، أي أنها الآيات الأم. فكما أن الطفل يرجع إلى أمه، وأمه تكون مرجعا له، وأن المدن الكبيرة (أم القرى)، تكون مرجعا للمدن الأصغر، فالآيات المحكمة أيضا تحسب مرجعا للآيات المتشابهة. الآيات المتشابهة للتدبر والتفكر ولكن لابد من الاستعانة بالآيات المحكمة لكي نتدبر فيها. وبدون الاستعانة بالآيات الأم، فإن ما يستنتج من الآيات المتشابهة غير صحيح وليس له اعتباره.

ثم هناك نصاً للشيخ الشهيد ترددت في بادئ الأمر بنقله ولكن بعد التوكل على الله قلت هي نقطة مهمة يجب على الإخوة الكرام الإطلاع عليها إذ يقول:

ظهر بين علماء الشيعة قبل ثلاثة أو أربعة قرون، أشخاص يعتقدون بعدم حجية القرآن. ولم يعترفوا في ثلاثة من المنابع الأربعة للفقه، والتي ارتضى بها علماء المسلمين، بمثابة معايير لمعرفة المسائل الإسلامية، وهي القرآن والسنة والعقل والإجماع. كانوا يدعون إن الإجماع من بنات علماء المذاهب الأخرى ولا يمكن إتباعه، والعقل لا يجوز الاعتماد عليه لكثرة أخطائه، وأما بالنسبة للقرآن فكانوا يعتقدون بأنه اكبر من أن نستطيع نحن البشر أن نطالعه ونتأمل فيه ولا يحق إلا للنبي والأئمة من التعمق في آيات القرآن ونحن لا يحق لنا غير تلاوة الآيات، وهؤلاء هم الأخباريون. ←

الأخباريون لا يجوّزون إلاّ مراجعة الأخبار والأحاديث. ربما تعجبتم إذا علمتم أن بعض التفاسير التي كتبت من قبل هؤلاء، إذا رأوا حديثا في ذيل آية ذكروها، وإن لم يجدوا حديثا امتنعوا حتى من ذكر الآية، وكأن تلك الآية ليست في القرآن. هذا العمل كان نوعا من الظلم والعدوان تجاه القرآن. وطبيعي أن مجتمعا يطرد بهذا الشكل كتابه السماوي – وأي كتاب كالقرآن –، ويسلمه بيد النسيان، لا يمكن أن يتحرك أبدا في مسير القرآن.

وكان هناك فرق أخرى غير الأخباريين يمتنعون من وضع القرآن في متناول أيدي العامة (من الناس)، نستطيع أن نذكر من هذه الفرق: الأشاعرة الذين كانوا يعتقدون بأن معرفة القرآن لا تعني التدبر في آيات القرآن، بل معناها فهم المعاني اللفظية للآيات، أي أن ما عرفناه من ظاهر الآيات نقبلها ولا يهمنا من واقعها شيئا. وطبيعي أن هذا الأسلوب من المعاملة مع القرآن، سريعا ما يدعو إلى الضلال والانحراف، لأنه لا مفر من توضيح معاني الآيات، ولكن لأنهم عطلوا العقل، فلا بد أن يحصلوا على نتائج ساذجة من القرآن. وبدليل هذا النوع من التفكير، انحرفوا عن طريق الإدراك الصحيح، واعتقدوا اعتقادات باطلة، من قبيل التجسيم، أي أن الله جسم، مثات من العقائد الانحرافية الأخرى مثل قولهم بإمكانية رؤية الله بالعين والتحدث مع الله بواسطة اللسان العضوي و....

وفي مقابل الفرق التي تركت القرآن من الأساس، ظهرت فرقة أخرى جعلوا القرآن وسيلة للوصول إلى أغراضهم وأهدافهم الشخصية. وكلما كانت تقتضي مصالحهم قاموا بتأويل القرآن ونسبوا إليه أمورا لا ترتبط أساسا بروح القرآن، وعند مواجهتهم أي اعتراض كانوا يجيبون أنهم دون غيرهم يعرفون بواطن الآيات، وأن المعاني المستخرجة حصلوا عليها من معرفة بواطن الآيات. وأن أبطال هذه الحركة في تاريخ الإسلام فرقتان: أولاها الإسماعيلية ويقال لهم الباطنية وثانيتها المتصوفة. الإسماعيلية يسكنون الهند ويسكن بعضهم في إيران. وقد نجحوا في استلام الحكم، وهي الحكومة الفاطمية في مصر.

يعرف الإسماعيليون بأنهم من الشيعة، ويعتقدون بستة من الأئمة، ولكن، أجمع علماء الشيعة الأثنا عشرية، أن هؤلاء بعيدون عن التشيع كل البعد، حتى أهل السنة الذين لا يعتقدون بأئمة الشيعة كما تعتقد الشيعة، اقرب إلى التشيع من هؤلاء الشيعة المعتقدين بستة من الأئمة (اشترك جماعة – بالنيابة عن الإسماعيليين – في مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية الذي تأسس قبل ٣٥ سنة تقريبا، واجتمعت فيه جميع الفرق الإسلامية، وهناك اتفق علماء الشيعة والسنة، إن الإسماعيليين ليسوا من الفرق الإسلامية، ولم يسمحوا لهم بالاشتراك في ذلك المجمع أرتكب الإسماعيليون بواسطة اعتقادهم بالباطنية خيانات كثيرة في تاريخ الإسلام، وكان لهم دور كبير في إيجاد الانحراف في الأمور الإسلامية.

وإذا انصرفنا عن الإسماعيلية، فهناك المتصوفة الذين لهم دور كبير في مسألة تحريف الآيات، وتأويلها طبقا لعقائدهم الشخصية، أذكر هنا مثالا واحدا لتفاسيرهم، حتى تتضح طريقتهم في التحريف، وليقرأ القارئ حديثًا مفصلاً من هذا المجمل. ←

عندما ورد ذكر إبراهيم (ع) وابنه اسماعيل (ع) في القرآن، يحكي القرآن أن إبراهيم كان يؤمر في المنام – عدة مرات – بذبح ابنه في سبيل الله. يتعجب إبراهيم في البداية من هذا الأمر، ولكن بعد تكرر الرؤيا يتيقن ويسلم أمره إلى الله، ثم يخبر ابنه عن هذا الموضوع، ويقبل ابنه بكل إخلاص ويستسلم لحكم الله، قال تعالى.. {.. يابني إني اري في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت أفعل ما تؤمر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين} (سورة الصافات، الآية ١٠٢)، والغرض هو إظهار التسليم والرضى بقضاء الله، ولذلك فعندما يستعد الأب والابن بكل إخلاص لتنفيذ أمر الله تبارك وتعالى، يتوقف تنفيذ الحكم بإذن الله.

وفي تفسير هذه الحادثة يقول المتصوفة: إن المقصود من إبراهيم هو العقل، والمقصود من إسماعيل هو النفس، والعقل – هنا – كان يريد أن يذبح النفس!

وواضح أن هذا النوع من التفسير لا يكون إلا لعبا بالقرآن وإظهار نوع من المعرفة الإنحرافية. وبالنسبة لهذه التفاسير المنحرفة والمبتنية على الأميال والأهواء النفسية والحزبية، يقول الرسول الأعظم (ص): "من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده في النار". وهذا النوع من التفسير (المتقدم) يعتبر اتخاذ القرآن لعبا، وأنه خيانة كبرى.

اتخذ القرآن أسلوبا وسطا في مقابل الجمود والتفكر الجاف للأخبار بين ونظرائهم، وكذلك في مقابل الانحرافات والتفاسير الخاطئة للباطنية وغيرهم، وهذا الأسلوب (الوسط) عبارة عن التأمل والتدبر المنصف والبعيد عن الأغراض والأهواء.

القرآن يدعو المؤمنين، بل وحتى المخالفين بالتفكير في آياته، ويدعوهم بأن يتأملوا في آياته بدلا عن صدها وإنكارها. يقول في خطاب مع المخالفين: {أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} (محمد – ٢٤). يقول في آية أخرى: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ} (ص – ٢٩). أنه كتاب مبارك مثمر أرسلناه إليك، لماذا؟ لم نرسله ليقبلوه ويضعوه فوق الرفوف، بل أرسلناه ليفكروا ويتدبروا في آياته.

هذه الآيات وعشرات الآيات الأخرى التي تؤكد على تدبر القرآن، تجوز وتؤيد تفسير القرآن ، ولكن ليس تفسيرا على الهوى والميل النفسي، بل على أساس الصدق والإنصاف، بعيدا عن الأغراض الشخصية. عندما تتأمل في القرآن بإنصاف وبدون غرض ، فلا ضرورة لنا في إمكانية معرفة كل مسائلة.

القرآن من هذه الجهة يشبه الطبيعة. فكم من أسرار في الطبيعة لم تنكشف بعد، وليس هناك أمل في اكتشافها، في الأوضاع الحالية، ولكنها سوف تكشف في المستقبل. وإضافة على ذلك، بالنسبة إلى معرفة طبيعة الإنسان، لا بد من مطابقة التفكر مع الطبيعة كيفما كانت. القرآن أيضا كتاب مثل الطبيعة لم ينزل لزمن واحد، وإذا كان غير ذلك فقد كانوا يكتشفون غوامضها جميعا في الماضي، وكان هذا الكتاب السماوي يفقد جاذبيته وطراوته وتأثيره.

إن الاستعداد للتدبر والتفكر، وكشف غوامض القرآن، موجود دائما، وهذه نقطة وضحها النبي والأئمة عليهم السلام، في حديث منقول عن الرسول (ص) ←

يقول فيه (ما معناه): مثل القرآن مثل الشمس والقمر، يتحرك مثلهما باستمرار، أي أنه ليس ثابتا ولا يبقى في مكان واحد، وقال (ص) أيضا: "القرآن ظاهرة أنيق وباطنه عميق" (هذه الجملة جاءت ضمن حديث طويل للرسول الأعظم (ص) في فضل القرآن – الكافي ج٤ – ص ٣٩٩)

في عيون أخبار الرضا، نقل من قول الإمام الرضا (ع)، أنه سئل الإمام الصادق (ع): ما هو السر في بقاء القرآن على طراوته كلما يتلى أكثر، وكلما يمضي عليه الزمان زمنا أطول؟ فأجاب الإمام: "لأن القرآن لم ينزل لزمان دون زمان ولناس دون ناس". لقد أوجده الله ليسبق الأفكار والأزمنة في أي زمان، مع وجود الاختلافات الكثيرة في المعلومات وأنواع التفكر ومدى أتساع الفكر، مع أنه يحوى مجهولات لقرائه في كل زمان، ولكنه يعرض مقدارا كبيرا من المعاني والمفاهيم، القابلة لإدراك، بحيث يشبع حاجة الزمان.انتهى.

أما الاتجاه العام لوصف شخصية الرسول الأكرم مما يحتاج إلى بحث مفصل وشامل، لكن أنقل بعض مقتطفات من أقوال الشهيد مطهري لوصف شخصية رسول الله ما قبل البعثة– مع أني متوقف في مسألة أمية النبي ولكن أنقل هذه المقتطفات حتى أمل أن يخضع ما طرح للمناقشة – فيقول رضوان ربي عليه:

من الأمور الواضحة في حياة الرسول الأكرم (ص) انه لم يتعلم ولم يتتلمذ على أحد، ولم يطلع على مقال أو كتاب.

ولم يدع له ذلك أي مؤرخ سواء كان مسلماً أو غير مسلم لا في دور طفولته أو شبابه ولا بالأحرى في دور الكهولة والشيخوخة وهو دور الرسالة.كما أنه لم يذكر أحد أو يعرض سنداً يوضح أنه (ص) قد قرأ سطراً واحداً أو كتب كلمة واحدة قبل عصر البعثة.

لقد كان العرب آنذاك وبالأخص عرب الحجاز أناساً أميين وكان الذين يستطيعون القراءة والكتابة يعدون بالأصابع ويشار إليهم بالبنان، فلا يمكن والأمر كذلك أن نتصور وجود شخص يتقن القراءة والكتابة في البيئة ولا يعرف عنه ذلك.

ونحن نعلم– وسنوضح بعد هذا– أن معارضي الرسول الأكرم (ص) اتهموه آنذاك بالاستماع إلى الآخرين ونقل تعاليمه منهم، ولكنهم لم يتهموه مطلقاً بأنه كان يعرف القراءة والكتابة، فهو مثلاً يحتفظ بكتب لديه ويستلّ منها المواضيع ويستفيد منها... وهو اتهام قريب تصوره لو كان النبي يلم أقل إلمام بالقراءة والكتابة.

ولم يجد المستشرقون الذين ينظرون بعين النقد الدقيق للتاريخ الإسلامي أي إشارةٍ إلى وجود معرفةٍ له (ص) بالقراءة والكتابة ولذا فقد اعترفوا بعد لأي بأنه كان أميّاً ترعرع في أمةٍ أميةٍ.

يقول كارليل في كتابه "الأبطال" : " يجب أن لا ننسى شيئاً وهو أن محمداً لم يتلق أي تعليم لدى أي معلم فقد كانت صناعة الخط قد وجدت حديثاً بين الشعب العربي. أعتقد أن الحقيقة هي أن محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة ولم يكن يعرف إلا حياة الصحراء."

ويقول ويل ديورانت في كتابه "قصة الحضارة" : ←

"الظاهر أنه لم يكن أحد يفكر في تعليمه (أي تعليم الرسول الأكرم) القراءة والكتابة. فلم تكن صناعة الكتابة والقراءة ذات أهمية في نظر الأعراب ولهذا لم يكن يتجاوز الذين يعرفون القراءة والكتابة سبعة عشر شخصاً. ولسنا نعلم أن محمداً قد كتب شيئاً بنفسه. لقد كان له كاتب خاص بعد النبوة ومع ذلك فقد جرى على لسانه أعرف الكتب العربية وأشهرها وقد عرف دقائق الأمور أفضل بكثير من المعلمين".

ويقول "جان ديون يورث في كتابه (الاعتذار إلى محمد والقرآن): " وحول التعليم والتربية- كما هو متداول في العالم - يعتقد الجميع أن محمداً لم يتعلم ولم يعرف سوى ما كان متداولاً في قبيلته".

ويقول كونستان ورزيل كيوركيو في كتابه (محمد! النبي الذي تجب معرفته من جديد) "مع أنه كان أمياً فأنا نجد الحديث عن القلم والعلم أي الكتابة والتكتيب ، والتعلم والتعليم في أوائل الآيات النازلة عليه ، ولم يكن في أي من الأديان الكبرى اهتمام شامل بالمعرفة ولا يمكن أن نجد ديناً يحتل العلم والمعرفة فيه محلاً بارزاً كما كان الأمر في الإسلام. ولو كان محمد عالماً لما كان في نزول هذه الآيات عليه في غار حراء مجال تعجّب لأن العالم يعرف قدر العلم ، ولكنه كان أمياً ولم يدرس على أي معلم. وأنا بدوري أهنئ المسلمين على احتلال طلب المعرفة هذا المقام السامي في مبدئهم".

ويقول غوستاف لوبون في كتابه (الحضارة العربية الإسلامية) : "المعروف أن النبي كان أمياً وهو يطابق القياس والقاعدة إذ لو كان من أهل العلم لكان ارتباط مطالب القران ومواضيعه أفضل مما هو عليه الآن بالإضافة أنه مطابق للقياس أيضاً من جهة أنه لو لم يكن أمياً لما استطاع أن يأتي بمذهب جديد وينشره ، ذلك أن الإنسان الأمي هو أعلم وأكثر معرفة باحتياجات الجهال ، وهو يستطيع بشكل أفضل أن يسير بهم إن الرسول (ص) كان طليعياً في مجالات العبادة والتضحية والتقوى والصدق والحسن وحسن الخلق والشورى والتواضع وسائر الأخلاق والآداب الحسنة لأنها كلها تعد كمالاً له في حين يعد فقدانها نقصاً ولكن موضوع القراءة والكتابة ليس من هذا القبيل.

إن قيمة القراءة والكتابة الأساسية لهذا الإنسانية تكمن فيما تؤديانه من خدمات إذ توصلان الإنسان إلى معرفة ما يدور في خلد غيره وتساعدانه على أن ينقل ما يدور في خلده إلى الغير ذلك أن الخطوط رموز وعلامات يتفق عليها البشر لتفهيم أفكارهم ومقاصدهم، و التعرف على الخطوط وسيلة لانتقال المعلومات من فرد إلى آخر، وشعب إلى آخر، ونسل إلى آخر وبهذا يحفظ الإنسان معلوماته من الفناء والنسيان، وعليه فامتلاك القدرة على الكتابة والقراءة هو بمنزلة معرفة لغة ما وبالمقدار الذي يتعرف فيه الإنسان على لغات أكثر فانه يمتلك وسائل أكبر لكسب المعلومات الإنسانية.

ومن هنا نعرف أن معرفة اللغة والقراءة والكتابة ليست علماً بالمعنى الواقعي وإن كانت تشكل مفتاح العلوم، فالعلم هو إدراك إنساني لحقيقة وقانون واقعي وذلك كما ندركه في العلوم الطبيعية والمنطق والرياضيات حيث يكتشف فيها الإنسان روابط واقعية تكوينية وعليه ومعلولية بين الأشياء الخارجية أو الذهنية. ←

أما معرفة اللغة وقواعدها وأمثال ذلك فليست هي بعلم إذ لا تجعلنا ندرك رابطة واقعية بين الأشياء فما هي إلا سلسة أمورٍ وضعية تعاقدية اعتبارية لا تتجاوز الفرض والاتفاق ، تشكل معرفتها مفتاحاً للعلم لا نفس العلم.

نعم ربما تحدث على صعيد هذه الأمور الوضعية ظواهر واقعية من قبيل تطور اللغات وتركيباتها التي تعبر عن تكامل الأفكار وتحدث طبق قانون طبيعي. وبالتالي تكون معرفة مثل هذه القوانين الطبيعية من الفلسفة والعلم. إذن فقيمة القراءة والكتابة تكمن في أن يمتلك الإنسان بيده مفاتيح علوم الآخرين.

ولكن هل ينحصر طريق المعرفة وكسب العلم بهذا السبيل أي سبيل امتلاك الإنسان لهذا المفتاح الذي له فتح مغاليق علوم الآخرين والاستفادة من كنوزها؟ وهل على النبي أيضا أن يستفيد من علوم أفراد الإنسان ؟ ولو كان الأمر كذلك فأين نضع النبوغ والابتكار؟ وأين الإشراق والإلهام؟

وأين التعلم المباشر من الطبيعة ؟ إن الحقيقة تقول : إن التعلم عبر الكتابة والقراءة هو من أردأ أساليب التعلم لأن كتابات البشر تختلط فيها الحقائق بالأوهام بالإضافة إلى أن المتعلم عبرهما (أي القراءة الكتابة) يمتلك حالة تلقٍ كامل دون أن يتدخل ويتفاعل مع عملية التعلم.

مما ينقل عن ديكارت الفيلسوف الفرنسي المعروف أنه نشر سلسلة مقالات هامة أدت إلى أن يذيع صيته في الآفاق ويعجب الجميع بأحاديثه المجددة. وكان أحد المعجبين بمقالاته قد ظن – كما ظن الدكتور سيد عبد اللطيف – أن ديكارت يجلس على كنز من النسخ والكتب العلمية فيستقي معلوماته منه ، فذهب إلى لقائه وطلب منه أن يريه مكتبته فذهب به ديكارت إلى مكان كان قد شرح فيه جثة عجل وأراه ذلك العجل وبادره قائلاً : " هذه مكتبتي لقد استقيت معلوماتي منها" ! وقد كان المرحوم السيد جمال الدين الأسد آبادي يقول : "أني لأعجب من بعض الأشخاص الذي يقضون عمرهم وهم يقرؤون كتب وكتابات أناس مثلهم على ضوء مصباح ، ألم يخطر في بالهم يوماً أن يطالعوا المصباح نفسه ؟ فهم لو تأملوا المصباح في إحدى الليالي وأغلقوا الكتاب فسوف يحصلون على معلومات أوفر وأوسع.

نعم ليس هناك من أحد دخل الحياة الدنيا عالماً وكل الناس أول الأمر جهال ثم يتعلمون شيئاً فشيئاً. وكل شخص – ما عدا الله تعالى – جاهل في ذاته ثم يصبح عالماً بمقتضى القوى والأسباب الأخرى. وكل إنسان يحتاج إلى معلم أي إلى قوة تلهمه. يقول تعالى :

{أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى، وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى} (الضحى٦-٨).. لكن الكلام كله في المعلم ومن يجب أن يكون؟ وهل يجب أن يستقي الإنسان معلوماته من إنسان آخر وحينئذ فلا مناص من أن يمتلك بيده مفتاح علوم الآخرين أي القراءة والكتابة؟ أليس في مقدور الإنسان أن يبتكر؟ أليس بقادر على مطالعة كتاب الخلقة والطبيعة – في عزلة عن الآخرين؟

ألا يمتلك سبيل الاتصال بالغيب والملكوت فيكون الله تعالى معلمه وهاديه مباشرة؟ إن القرآن الكريم يقول عن النبي (ص) في سورة (النجم) (وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى((النجم٣-٥). ويقوم الإمام علي (ع) فيه (ص) :

"ولقد قرن الله به منذ كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم" (نهج البلاغة ، الخطبة ١٩٠) وللمثنوي الشاعر الفارسي الكبير أبيات حول الموضوع. وابن خلدون في مقدمته المعروفة "فصل : في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية " يبحث حول كون الخط كمالاً من جهة أن الحياة الإنسانية الاجتماعية تجعل البعض محتاجاً لمعلومات البعض الآخر وبعد أن يتحدث عن السير التكاملي للخط في الحضارات وعن وجود الخط في الحجاز يقول :

"فكان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الأحكام والإتقان والإجادة ولا إلى التوسط لما كان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع، وأنظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف ، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الإجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركاً بما رسمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ....(مقدمة أبن خلدون ص ٣٣٢ طبع دار الفكر).

ثم يقول:

في مطلع هذا الحديث، قلنا أن أعداء النبي والإسلام آنذاك اتهموه بالأخذ من أفواه الآخرين ولكنهم لم يتهموه قط بأنه كان يعرف القراءة والكتابة، فكان يستقي من كتب مذخورة لديه.

ولكي يمكن أن ينبري أحد فيقول : إنهم اتهموه بذلك أيضاً كما يعكس ذلك القرآن نفسه حين يقول : {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} (الفرقان٥).

ولكن الجواب – بالإضافة إلى أن اتهاماتهم كانت تنطلق من تعصب وشعور بالحقارة ، وهو ما يسميه القرآن بالظلم والزور – هو أن الآية ليست صريحة في ادعاء أن النبي كان يكتب بنفسه ، إذ أن كلمة الاكتتاب تأتي بمعنى الكتابة ، وبمعنى طلب الكتابة ، أي الطلب إلى شخص آخر أن يكتب له.

وإن ذيل الآية القرآنية على أن المقصود هو المعنى الثاني.

فمضمون الآية هو أنهم قالوا أنها أساطير الأولين كتبها (أو كتبها الآخرون له) ، وهي تقرأ عليه في كل صباح وأصيل. وقد ذكر الاكتتاب بصيغة الماضي، والإملاء بصيغة المضارع المستمر مما يعني أن تلك الأمور التي اكتتبها سابقاً يتلوها عليه الآخرون العارفون بالقراءة صباحاً ومساءً فيتعلم منها ويحفظ. ←

وإذا افترضنا أن النبي (ص) كان يعرف القراءة فما الداعي لقولهم بأن الآخرين كانوا يتلونها عليه في كل صباح ومساء فيتعلم منهم ويحفظ؟ بل كان يمكن أن يكتفوا بالقول: أنه يراجع ويحفظ.

إذن، فحتى الكافرون والذين اتهموا النبي (ص) بشتى التهم فلم يكونوا يتورعون عن أي منها... فوصفوه بالجنون والسحر، والسماع الشفهي من أفواه الآخرين... حتى هؤلاء لم يكونوا يستطيعون اتهامه بأنه يعرف القراءة والكتابة فيقرأ عليهم محتويات الكتب الأخرى وينسبها إلى نفسه.

أنه من خلال حكم التاريخ القطعي وبشهادة القرآن وبحكم القرائن التاريخية الكثيرة نعلم أن لوح ضمير النبي كان مبرئا من التعلم من بشر. إنه لم يتعلم إلا في ظل التعليم الإلهي. ولم يستق إلا من الحق – تعالى – إنه زهرة لم ترعها إلا يد الواجب جل وعلا.

وأنه رغم عدم تعامله مع القلم والقرطاس والحبر والقراءة والكتابة، رغم ذلك يقسم كتابه المقدس بالقلم وآثاره كأمر مقدس {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ} (القلم١). ويؤمر بالقراءة في أول رسالة إلهية إليه وعبر عن صناعة استعمال القلم بأنها أعظم نعمة تأتي بعد نعمة الخلق {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} (العلق١)

وهكذا رأينا ذلك الإنسان الذي لم يمسك بقلم قط، رأيناه عند دخوله المدينة يبعث نهضة القلم، رأينا ذلك الإنسان الذي لم ير معلماً قط ولم يدخل جامعة أبداً، يعلم الإنسانية وينشئ الجامعات والجامعات عبر التاريخ.

الإمام الرضا (ع) في حواره مع أهل الديان يقول لرأس الجالوت "وكذلك أمر محمد (ص) وما جاء به كل رسول بعثه الله ، ومن آياته أنه كان يتيماً فقيراً راعياً أجيراً لم يتعلم كتاباً ولم يختلف إلى معلم ، ثم جاء بالقرآن الذي فيه قصص الأنبياء (ع) وأخبارهم حرفا حرفاً ، وأخبار من مضى ومن بقى إلى يوم القيامة ..." (عيون أخبار الرضا ، ص١٣٦) .

إن الظاهرة التي أثارت إعجاب الجميع وكشفت أكثر من غيرها عن عظمة القرآن الكريم ، وكونه كتاباً سماوياً حقاً ، هي أن هذا الكتاب العظيم بكل معارفه في مجالات المبدأ الأول والمعاد وتصوراته عن الإنسان والأخلاق والقانون والقصص والعبر والمواعظ ، وبكل جماله وفصاحته ، هذا الكتاب جرى على لسن رجل أمي لم يدخل أي جامعة ولم يقابل أي عالم من علماء العالم ولم يقرأ حتى كتاباً بسيطاً من كتب عصره.

إن الآية والمعجزة التي أجراها الله تعالى على يد آخر أنبيائه هي معجزة كتابية بلاغية حديثية، ترتبط بالفكر والإحساس والضمير ، وقد أثبتت هذه المعجزة وهذا الكتاب قدرته المعنوية الخارقة عبر العصور ، فلا يبليه الزمان ، لقد جذب الملايين من القلوب ، ويجذب كل حين بعد أن كان يموج بالطاقة الحيوية المحركة ، فما أكثر العقول التي بعثها على التفكير ، وما أكثر القلوب التي أفاضها بالذوق والشوق المعنويين. وكم غذى طيور السحر وأحياءه بالغذاء المعنوي ، وما أكثر الدموع التي أجراها على الخدود حباً وخوفاً لله تعالى في أعماق السحر وأواسط الليل ، وكم أطلق من أمم من عقال الاستعمار والاستبداد والظلم ! انتهى.

شمولية إعجاز القرآن الكريم

الأخ الأشتر باركك الله ،

القرآن معجزة عظيمة ولكنها أكبر من معجزة بلاغة ولغة، بل هو كيان عجيب من النور الفكري الذي لم يتمكن أحد من مجاراته.

ولكن هذا لا يعني يا حبيبي أن لا إعجاز بلاغي فيه، فقد ورد أن العرب لم ينزلوا المعلقات عن الكعبة إلا بعد أن نزلت الآية الشريفة {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (سورة هود/٤٤).

نعم ... إن العناية الإلهية التي شاءت أن تثبت إعجاز القرآن أكثر فأكثر أنزلت هذا القرآن على عبدٍ يتيم راعٍ يجوب الصحراء أمي لم يدخل مكتب تعلين أبداً.

(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) انتهى.

وهذا يعني أن العرب أصحاب الفصاحة والبلاغة أدركوا أن مثل هذا الكلام لا يجارى في لغة العرب، ولهذا أنزلوا المعلقات عن أستار الكعبة. وهذا عين الإعجاز.

ولكن يبقى السؤال المهم هل هذا الإعجاز للنخبة أم للعامة؟

طبعًا الجواب هو إعجاز لأرباب الفصاحة والعارفين بأسرار البلاغة وهم نخبة فأما العامة فهم مقلدون لما تقوله النخبة، وهذا بحسب الثقة والعلاقة بين المرجع والمقلد فمن كانت مرجعيته تقول له أن القرآن ليس فيه بلاغة، كما تحاول الكنيسة تصويره لأتباعها، فيكون عندهم أن القرآن فارغ من الإعجاز البلاغي كما يُقال لهم، وهذه هي المشكلة.

فإعجاز القرآن البلاغي هو تحدٍ للطبقة الراقية من أرباب الكلام ولكن إعجاز القرآن الشمولي هو ما يجب أن نركز عليه، أي أن نركز على شمولية القرآن من جميع جوانبه ابتداءً من الحرف وانتهاء بالمواضيع، وأما منخفضي الثقافة فيمكن الحديث معهم عن (الهداية) في القرآن ونشر الفضيلة والحب بين البشر وهذا جل ما يفهمه العامي القاصر عن إدراك المعارف.

موضوع الهدى الذي جاء به القرآن يجب أن يقارن مع الهدى الذي جاء في كتب من ينتقدون الإسلام.

فإن القرآن يفوق الهدى الذي في الكتب قبله بأبسط ملاحظة في المقارنة بين الكتب والقرآن.

فالقرآن الذي يطرح العلاقة مع الله مباشرة ويطرح نظرية التكليف والمسؤولية يختلف جوهريًا عن الهداية في الإنجيل والتوراة التي تركز على الإنسان الوسيط بين الله المطلق وبين الإنسان، وفي الإنجيل نفي المسؤولية التكليفية واعتبار أن الحب هو المنجي لا العمل، بينما في التوراة هناك خليط غير متجانس من المسؤوليات المتضادة فهناك الزنا المحرم وهناك الزنا المقدس الواجب كزنا استير وهناك القتل المحرم وهناك القتل المباح والمستحب لغير بني إسرائيل، فهذه الصور للتكليف لا تساعد على تكوين هدى يقابل هدى القرآن الداعي إلى العدالة التامة والانسجام التام في الأحكام.

وقد نلحظ في التوراة تجسيما لله في غاية الغرابة كقصة المصارعة بين الله ويعقوب وكسر رجل الله وجعله أعرج، فهذه صورة كوميدية لله لا يمكن أن تنسجم مع الهدى الحقيقي.

إن حديث المقارنة حديث طويل يحتاج إلى كتب كبيرة لبسط كل القضايا المختلف فيها في التصوير وفي الفكرة، ولكن على العموم إن من يقرأ القرآن يجد فرقًا كبيرًا مع الكتب الموجودة حاليًا في الكنيسة والكنيس في مجال الدعوة إلى الله.

وقد لا يدرك العامي اليهودي أو المسيحي بأن حكمه على الله نابع من حكم مسبق بأن المسيح أو العزير هو الله وأن النجاة لا تكون إلا به، وهذا حكم مسبق لا يعتمد على نفس هدى الله، وإنما هو تحديد من قبل الكنيسة لفكره، فالمسيحي لا يفكر خارج تفكير الكنيسة، والكنيسة تقول أن الهدى هو الإيمان بالمسيح الإله المتجسد. فلو تجرد المسيحي من التقليد للكنيسة في الفهم لوجد فرقًا شاسعًا بين أن نقول أن الهدى هو هدى الله المطلق وبين أن نقول إن محورية الهدى تتمحور حول شخص الإنسان المسيح الذي هو إله متجسد.

فهنا فرق كبير بين الوساطة وبين عدمها، الوساطة بنفسها لا مانع منها، ولكن لا بد أن لا تبتعد عن مفهوم الوساطة إلى العبادة الحقيقية، و فكرة الإله المتجسد تبتعد عن فكرة الوساطة أبعد مما ينبغي في الهدى.

وبالتالي فالأمر بدل أن يكون دائرًا حول الله يكون دائرًا حول وسيط الله، وينسى الله بالفعل. بل قد ينحصر الإيمان بالأيقونة بدل المسيح نفسه، فتحوّل الدين النصراني إلى عبادة أيقونات وثنية واضحة للعيان، وأصبح التمثال والرسم هو المجسد الحقيقي للفكر الإيماني، وهو المعبود الحقيقي، وهذا منفي أساسًا في القرآن.

وهنا فارق كبير بين التوسل والشفاعة الإسلامية، وبين عبادة الأيقونة المسيحية، فالعبادة للأيقونة تمثل توجّه المتعبد للأيقونة على أنها هي الله أو تمثل الله، بينما التوسل الإسلامي هو توجّه لعبد مخلوق لله بعنوان أنه وسيط مقبول عند الله، وهو عبد لله مقرب إليه، وليس هو الله أو يمثل الله. فالفارق كبير بين توجه المسلم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في قضاء الحوائج وبين توجه المسيحي للإيقونة، وهذا التوجه للأيقونة إنما كان وليد تطورات في الفكر المسيحي جعل هدى الإنجيل محدودًا ومخدوشًا في أهم جوانبه وهو عبادة الله الواحد الأحد وتنظيم العلاقة مع الله، وليس معنى هذا أن ليس في المسيحية حب لله وعلاقة به، ولكن الفارق في الهدى كبير كما بيّنا، والشروح تطول.

إذن، أهم ما يجب أن نركز عليه في عرض القرآن، هو الشمول والهدى فأما الشمول فهو للعلماء والمتخصصين و لذوي الفكر النيّر، وأما الهدى فهو للعامة ولكل البشر بمختلف أجناسهم وأفكارهم ودياناتهم ولغاتهم. ويتحقق موضوع الهدى العظيم في القرآن بشكل جلي حين إجراء المقارنات مع الكتب والصحائف التي يبني عليها المتلقي المحاور ديانته، ففي

هذه الحالة سيجد المتلقي المحاور للإسلام بأن فرقًا شاسعًا بين ما يؤمن به وبين ما يراه في القرآن الكريم. وهذا نتيجة دراسة شاملة للديانات ودراسة لطبيعة الحوارات العالمية حول الدين والهدى وليس مجرد تمني أو فكرة خيالية.

الإعجاز بالنبي أم بالقرآن؟

الأخ الكريم عشاق الحق،

بارك الله فيك يا أخي الحبيب، ولكن لِـمَ لـمْ تتهم فهمك قبل أن تتهم النص المذكور بالخطأ؟ [وكان قد أشكل على قول العلامة: هذا مقدم على موضوع القرآن لو كنتم تعلمون – أي معرفة طبيعة النبي – ، بل القرآن يصبح هباءً إذا لم نفهم ما يجري في هذا الموضوع]

النص المذكور: يعني بكل صراحة أنه إذا اهتزت صورة النبي فلا إسلام ولا قرآن. فيجب بحث إثبات نبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قبل البحث في القرآن وما فيه.

وهذا هو التقدم الرتبي والموضوعي.

فإذا لم نثبت صحة النبوة فيصبح القرآن هباءً. وهذا حال القرآن عند من لم يؤمن بالإسلام.

القرآن يثبت نفسه عند العارفين لأنه نظام لغوي معنوي وهذا لا يفهمه الفلاّح القبطي المصري في أسيوط رغم أنه يجيد اللغة العربية، بل لا يفهمه العربي المثقف الآن. ولهذا ترى العلماء يؤمنون برسالة النبي حين يقرؤون القرآن لأنه علم حقيقي لا يدركه

جاهل، بينما لو قُرأ أيامًا على جاهل فلا يفهم هذا الدليل ولكن لو أعطيته صورة وحجم الرسول وحجم إنجازه من تصوير بيّئته فسيكون أول المسارعين للإسلام.

ثم كيف تريد أن تثبت القرآن للوهابية الذين يقولون كما يقول اليهود والنصارى أن متشابهات القرآن تسقط معانيه؟

فلو واجهت شابًا مغررًا به وقد ارتد من الإسلام السني إلى الوهابية المشركة. وقال لك أنتم تقولون أن القرآن حمّال ذو وجوه، فكيف تستدلون بالقرآن؟ فقد سقط القرآن من الاستدلال، ولا قيمة له كما يواجهوننا يوميًا بمثل هذا. لإسقاط الدليل على الحق. فبماذا تجيب هذا المغرر به؟ وكيف تعيده إلى الإسلام؟ سواء كان سنيًا أو شيعيًا، لا يهم، المهم أن تنقذه من الشرك وعبادة الإله راكب البعوضة الستيني الأمرد ذو اللحية وهو في الحقيقة طاووس اليزيديين إبليس لعنه الله*. الذي يبث بين أتباعه إن هذا القرآن فاقد للمعاني ويستدل بمثل هذه الأمور.

هذه أسئلة خطيرة جدا يجب تشغيل الخيال لإدراك غورها.

* راجع موضوع: "سر ابن تيمية" في كتاب العلامة المنار المسمى بـ(قطف الثمار من كتابات العلامة المنار).

فهم معجزة النبي

الأخ باحث مسلم* ،

* نقل الأخ "باحث مسلم" نصًا للشهيد محمد باقر الصدر عن اثبات نبوة النبي صلى الله عليه وآله بطريقة حساب الاحتمالات، وهذا هو النص:

ثبات نبوّة الرسول الأعظم محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم)

كما ثبت الصانع الحكيم بالدليل الاستقرائي ومناهج الاستدلال العلمي كذلك تثبت نبوّة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بالدليل العلمي الاستقرائي، وبنفس المناهج التي نستخدمها في الاستدلال على الحقائق المختلفة في حياتنا الاعتيادية وحياتنا العلمية.

ولنمهّد لذلك بأمثلة أيضاً :

إذا تسلّم الإنسان رسالةً من أحد أقاربه، وكان هذا القريب صبيّاً يدرس في مدرسة ابتدائية بأحد الأرياف، فلاحظ الإنسان الذي تسلّم الرسالة أ نّها قد كتبت بلغة حديثة وبعبارات مركّزة وبليغة وبقدرة فنيّة فائقة على تنسيق الأفكار وعرضها بصورة مثيرة، إذا تسلّم الإنسان رسالةً من هذا القبيل فسوف يستنتج أنّ شخصاً مثقّفاً واسع الاطّلاع قوي العبارة قد أملى الرسالة على هذا الصبي، أو شيئاً من هذا القبيل. وإذا أردنا أن نحلّل هذا الاستنتاج والاستدلال نجد أنّ بالإمكان تجزئته إلى الخطوات التالية :

الأُولى : أنّ كاتب الرسالة صبي ريفي ويدرس في مدرسة ابتدائية.

الثانية : أنّ الرسالة تتميّز بأُسلوب بليغ ودرجة كبيرة من الإجادة الفنّية وقدرة فائقة على تنسيق الأفكار. ←

الثالثة : أنّ الاستقراء يثبت في الحالات المماثلة أنّ صبيّاً بتلك المواصفات التي تقدّمت في الخطوة الأُولى لا يمكنه أن يصوغ رسالةً بالمواصفات التي لوحظت في الخطوة الثانية.

الرابعة : يُستنتج من ذلك إذن أنّ الرسالة من نتاج شخص آخر استطاع ذلك الصبيّ بشكل وآخر أن يستفيد منه ويسجّله في رسالته.

ومثال آخر للفكرة نفسها من الأدلّة العلمية : وهو الدليل الذي أثبت به العلماء الالكترون، فقد درس بعض العلماء نوعاً معيّناً من الأشعة ولّدها في أُنبوبة مغلقة، ثمّ سلّط على وسط الأُنبوبة قطعة مغناطيس على شكل نعل الفرس، فلاحظ أنّ الأشعّة تميل إلى القطب الموجب من المغناطيس وتبتعد عن القطب السالب منه، وكرّر التجربة في ظروف مختلفة حتى تأكّد من أنّ تلك الأشعّة تنجذب بالمغناطيس، وأنّ القطب الموجب في المغناطيس هو الذي يجذبها.

ولمّا كان هذا العالم يعرف باستقرائه ودراسته للإشعاعات الأُخرى ـ كالضوء الاعتيادي ـ أ نّها لا تتأثّر بالمغناطيس ولا تنجذب إليه وأنّ المغناطيس يجذب الأجسام لا الأشعة، أمكنه أن يدرك أنّ انجذاب الأشعة المعيّنة التي كان يجري عليها تجاربه وميلها إلى القطب الموجب من المغناطيس لا يُمكن أن يفسّر على أساس المعلومات المفترضة.

ومن هنا اكتشف عاملا إضافياً وحقيقةً جديدة، وهي أنّ هذه الأشعة تتألّف من أجسام دقيقة سالبة موجودة في جميع المواد؛ لأ نّها تنبعث من مختلف المواد، وسمّيت هذه الجسيمات بالألكترونات.

وتتلخّص عملية الاستدلال في كلا هذين المثالين ـ مثال الرسالة ومثال الألكترون ـ في أ نّه كلّما لوحظت ظاهرة معيّنة ضمن عوامل وظروف محسوسة، ولوحظ استقرائياً أنّ هذه العوامل والظروف المحسوسة في الحالات المماثلة لا تؤدّي إلى نفس الظاهرة، فيدلّ ذلك على وجود عامل آخر غير منظور لابدّ من افتراضه لتفسير تلك الظاهرة.

وبكلمة أُخرى : أنّ النتيجة إذا جاءت أكبر من الظروف والعوامل المحسوسة ـ بحكم الاستقراء للحالات المماثلة ـ كشفت عن وجود شيء غير منظور وراء تلك الظروف والعوامل المحسوسة.

وهذا ما يصدق تماماً على نبوّة الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله) والرسالة التي أعلنها على العالم باسم السماء ؛ وذلك ضمن الخطوات التالية :

الأُولى : أنّ هذا الشخص الذي أعلن رسالته على العالم باسم السماء ينتسب إلى شبه الجزيرة العربية، التي كانت من أشدّ أجزاء الأرض تخلّفاً في ذلك الحين من الناحية الحضارية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ←

وينتمي إلى الحجاز بالذات من أقطار تلك الجزيرة، وهو قطر لم يمرّ حتى تأريخياً بمثل الحضارات التي نشأت قبل ذلك بمئات السنين في مواضع أُخرى محدّدة من تلك الجزيرة، ولم يعرف أيّ تجربة إجتماعية متكاملة.

ولم ينلْ هذا القطر من ثقافة عصره ـ على الرغم من انخفاضها عموماً ـ شيئاً يذكر، ولم ينعكس على أدبه وشعره شيء ملحوظ من أفكار العالم وتيّاراته الثقافية وقتئذ، وكان منغمساً من الناحية العقائدية في فوضى الشرك والوثنية، ومفكّكاً اجتماعياً تسيطر عليه عقلية العشيرة، وتلعب فيه الانتماءات إلى هذه العشيرة أو تلك الدور الأساسي في أكثر أوجه النشاط بكلّ ما يؤدّي إليه ذلك من التناقضات وألوان الغزو والصراع الرخيص.

ولم يكن البلد الذي نشأ فيه هذا الرسول قد عرف أيّ شكل من أشكال الحكم سوى ما يفرضه الولاء للقبيلة من مواضعات.

ولم يكن وضع القوى المنتجة والظروف الاقتصادية في ذلك الجزء من العالم يتميّز عن أكثر بقاع العالم المتخلّف حينذاك.

وحتى القراءة والكتابة ـ بوصفها أبسط أشكال الثقافة ـ كانت حالةً نادرةً نسبياً في تلك البيئة، إذ كان المجتمع أُميّاً على العموم : {هُوَ الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيِّنَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلال مُبِين}.

وكان شخص النبي (صلى الله عليه وآله) يمثّل الحالة الاعتيادية من هذه الناحية، فلم يكن قبل البعثة يقرأ ويكتب، ولم يتلقّ أيّ تعليم منظّم أو غير منظّم : (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَاب وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ).

وهذا النصّ القرآني دليل واضح على مستوى ثقافة الرسول قبل البعثة، وهو دليل حاسم حتى في حقّ من لا يؤمن بربّانية القرآن ؛ لأ نّه ـ على أيّ حال ـ نصّ أعلنه النبّي (صلى الله عليه وآله) على بني قومه، وتحدّث به إلى أعرف الناس بحياته وتأريخه، فلم يعترض أحد على ما قال، ولم يُنكر أحد ما ادّعى.

بل نلاحظ أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) لم يساهم قبل البعثة حتى في ألوان النشاط الثقافي الذي كان شائعاً في قومه من شعر وخطابة، ولم يؤثَر عنه أيّ تميّز عن أبناء قومه، إلاّ في التزاماته الخُلُقية وأمانته ونزاهته وصدقه وعفّته.

وقد عاش أربعين سنةً قبل البعثة في قومه دون ان يحسّ الناس من حوله بأيّ شيء يميّزه عنهم سوى ذلك السلوك النظيف، ودون أن تبرز في حياته أيّ بذور عملية أو اتّجاهات جادّة نحو عملية التغيير الكبرى التي طلع بها على العالم فجأةً بعد أربعين عاماً من عمره الشريف : (قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ).

وكان النبي (صلى الله عليه وآله) قد ولد في مكّة، وظلّ فيها طيلة الفترة التي سبقت البعثة، ولم يغادرها إلى خارج الجزيرة العربية إلاّ في سفرتين قصيرتين : إحداهما مع عمّه أبي طالب وهو صبي في أوائل العقد الثاني، والأُخرى بأموال خديجة وهو في أواسط العقد الثالث.

ولم يتيسّر له ـ بحكم عدم تعلّمه للقراءة والكتابة ـ أن يقرأ شيئاً من النصوص الدينية لليهودية أو المسيحية، كما لم يتسرّب إليه أيّ شيء ملحوظ من تلك النصوص عن طريق البيئة ؛ لأنّ مكّة كانت وثنيةً في أفكارها وعاداتها، ولم يتسرّب إليها الفكر المسيحي أو اليهودي، ولم يدخل الدير إلى حياتها بشكل من الأشكال، وحتى أُولئك الحنفاء الذين رفضوا عبادة الأصنام من عرب مكّة لم يكونوا قد تأثّروا باليهودية أو المسيحية، ولم ينعكس شيء من الأفكار اليهودية والمسيحية على ما خلّفه قسّ بن ساعدة أو غيره من تراث أدبيّ وشعري.

ولو كان النبي (صلى الله عليه وآله) قد بذل أيّ جهد للاطّلاع على مصادر الفكر اليهودي والمسيحي للوحظ ذلك؛ إذ في بيئة ساذجة ومنقطعة الصلة بمصادر الفكر اليهودي والمسيحي ومعقدة ضدّها لا يمكن أن تمرّ محاولة من هذا القبيل دون أن تلفت الأنظار، ودون أن تترك بصماتها على كثير من التحرّكات والعلاقات

الثانية : أنّ الرسالة التي طلع بها النبي (صلى الله عليه وآله) على العالم متمثّلةً في القرآن الكريم والشريعة الإسلامية تميّزت بخصائص كثيرة :

منها : أ نّها جاءت بنمط فريد من الثقافة الإلهية عن الله سبحانه وتعالى وصفاته وعلمه وقدرته، ونوع العلاقات بينه وبين الإنسان، ودور الأنبياء في هداية البشرية ووحدة رسالتهم، وما تميّزوا به من قيم ومثل، وسنن الله تعالى مع أنبيائه، والصراع المستمرّ بين الحقّ والباطل، والعدل والظلم، والارتباط الوثيق المستمرّ لرسالات السماء بالمظلومين والمضطهدين، وتناقضها المستمرّ مع أصحاب المصالح والامتيازات غير المشروعة.

وهذه الثقافة الإلهية لم تكن أكبر من الوضع الفكري والديني لمجتمع وثني منغمس في عبادة الأصنام فحسب، بل كانت أكبر من كلّ الثقافات الدينية التي عرفها العالم يومئذ، حتى إنّ أيّ مقارنة تبرز بوضوح أ نّها جاءت لتصحّح ما في تلك الثقافات من أخطاء، وتعدّل ما أصابها من انحراف وتعيدها إلى حكم الفطرة والعقل السليم.

وقد جاء كلّ ذلك على يد إنسان أُمّي في مجتمع وثنيّ شبه معزول، لا يعرف من ثقافة عصره وكتبه الدينية شيئاً يذكر، فضلا عن أن يكون بمستوى القيمومة والتصحيح والتطوير. ←

ومنها : أنّها جاءت بقيم ومفاهيم عن الحياة والإنسان، والعمل والعلاقات الاجتماعية، وجسّدت تلك القيم والمفاهيم في تشريعات وأحكام. وكانت تلك القيم والمفاهيم وهذه التشريعات والأحكام ـ حتى من وجهة نظر من لا يؤمن بربانيتها ـ من أنفس ومن أروع ما عرفه تأريخ الإنسان من قيم حضارية وتشريعات اجتماعية.

فابنُ مجتمع القبيلة ظهر على مسرح العالم والتاريخ فجأةً لينادي بوحدة البشرية ككلّ، وابن البيئة التي كرّست ألواناً من التمييز والتفضيل على أساس العرق والنسب والوضع الاجتماعي ظهر ليحطّم كلّ تلك الألوان، ويعلن أنّ الناس سواسية كأسنان المشط، و (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ)، وليحوّل هذا الإعلان إلى حقيقة يعيشها الناس أنفسهم، ويرفع المرأة الموءودة إلى مركزها الكريم كإنسان تكافئ الرجل في الإنسانية والكرامة.

وابنُ الصحراء التي لم تكن تفكّر إلاّ في همومها الصغيرة وسدّ جوعتها والتفاخر بين أبنائها ضمن تقسيمها العشائري، ظهر ليقودها إلى حمل أكبر الهموم، ويوحّدها في معركة تحرير العالم وإنقاذ المظلومين في شرق الدنيا وغربها من استبداد كسرى وقيصر.

وابن ذلك الفراغ الشامل سياسياً واقتصادياً بكلّ ما يضجّ به من تناقضات الربا والاحتكار والاستغلال، ظهر فجأةً ليملأ ذلك الفراغ ويجعل من ذلك المجتمع الفارغ مجتمعاً ممتلئاً، له نظامه في الحكم، وشريعته في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، ويقضي على الربا والاحتكار والاستغلال، ويعيد توزيع الثروة على أساس أن لا تكون دولة بين الأغنياء، ويعلن مبادئ التكافل الاجتماعي والضمان الاجتماعي التي لم تنادِ بها التجربة الاجتماعية البشرية إلاّ بعد ذلك بمئات السنين.

وكلّ هذه التحوّلات الكبيرة تمّت في مدّة قصيرة جدّاً نسبياً في حساب التحوّلات الاجتماعية.

ومنها : أنّ الرسالة في نصوص قرآنية كثيرة تحدّثت عن تاريخ الأنبياء وأُممهم، وما مرّت بهم من وقائع وأحداث بتفاصيل لم تكن بيئة النبي العربي (صلى الله عليه وآله)ـ الوثنية والأُمّية ـ تعرف شيئاً عنها، وقد تحدّى علماء الكتاب ـ علماء اليهود والنصارى ـ النبي (صلى الله عليه وآله) أكثر من مرّة، وطالبوه بالحديث عن تاريخ تراثهم الديني، فواجه التحدّي بكلّ شجاعة، وجاء القرآن بما طلبوا دون أن تكون هناك أيّ وسيلة اعتيادية لتفسير اطّلاع النبي شخصياً على تلك التفاصيل : {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُـنّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِير مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}

وممّا يبهر الملاحظ أنّ القصص الحقّ في القرآن لا يمكن أن تكون مجرّد استنساخ لما جاء في كتب العهدين، حتى لو افترضنا أن أفكار هذه الكتب كانت شائعةً ومنتشرةً في الوسط الذي ظهر فيه النبي ؛ لأنّ الاستنساخ يمثّل دوراً سلبياً فقط، دور الأخذ والعطاء، بينما دور القرآن في عرض القصّة إيجابي، فإنّه يصحّح ويعدّل ويفصّل القصة عمّا أُلصقت بها من ملابسات لا تتّفق مع فطرة التوحيد والعقل المستنير والرؤية الدينية السليمة.

ومنها : أنّ القرآن بلغ في روعة بيانه وبلاغته وتجديده في أساليب البيان إلى درجة جعلت منه ـ حتى من وجهة نظر غير المؤمنين بربّانيته ـ حدّاً فاصلا بين مرحلتين من تاريخ اللغة العربية، وأساساً لتحوّل هائل في هذه اللغة وأساليبها.

وقد أحسّ العرب الذين حدّثهم النبي (صلى الله عليه وآله) بالقرآن بأ نّه لا يشبه إطلاقاً ما أَلِفوه من أساليب البيان، وما نشأوا عليه وأتقنوه من طرائق التعبير، حتى قال قائلهم حين استمع إلى القرآن : " والله لقد سمعت كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجنّ، وإنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه ليعلو وما يُعلى، وإنّه ليحطم ما تحته ".

وكانوا لا يسمحون لأنفسهم بالاستماع إلى القرآن ؛ إحساساً منهم بأثره الهائل، وخوفاً من قدرته الفائقة على تغيير نفوسهم، وهذا دليل على التميّز الهائل للبيان القرآني، وعدم كونه استمراراً متطوّراً لِمَا أَلِفوه.

وقد استسلموا أمام التحدّي المستمرّ والمتصاعد الذي واجههم النبي به، إذ أعلن : تارةً عجزهم مجتمعين عن الإتيان بمثله.وأكّد أُخرى عجزهم مجتمعين عن الإتيان بعشر سور مفْتَرَيَات من مثله.

وشدّد ثالثةً على عجزهم عن الإتيان بما يناظر سورةً واحدةً من القرآن الكريم

أعلن النبي (صلى الله عليه وآله) ذلك وكرّره على مجتمع لم يعرف صناعةً كما عرف صناعة الكلام، ولم يتقن فنّاً كما أتقن فنّ الحديث، ولم يتعوّد على شيء كما تعوّد على مجابهة التحدّي والتغنّي بالأمجاد، ولم يحرص على أمر كما حرص على إطفاء نور الرسالة الجديدة وتطويقها، ومع ذلك كلّه لم يشأ هذا المجتمع الذي واجه تلك التحدّيات الكبيرة أن يجرّب نفسه، ولم يحاول أن يعارض القرآن بشيء إيماناً منه بأنّ الأدب القرآني فوق قدرته اللغوية والفنيّة.

والطريف أنّ الذي كان يحمل إليهم هذا الزاد الأدبي الجديد على حياتهم إنسان مكث فيهم أربعين سنةً، فلم يعهدوا له مشاركةً في حلبة أدبية، ولا تميّزاً في أيّ فنّ من فنون القول.

هذا عدد من خصائص الرسالة التي أعلنها النبي (صلى الله عليه وآله) على العالم. ←

وهنا يأتي دور الخطوة الثالثة لتؤكّد على أساس الاستقراء العلمي في تاريخ المجتمعات أنّ هذه الرسالة بتلك الخصائص التي درسناها في الخطوة الثانية هي أكبر بدرجة هائلة من الظروف والعوامل التي مرّ استعراضها في الخطوة الأُولى، فإنّ تاريخ المجتمعات وإن كان قد شهد في حالات كثيرة إنساناً يبرز على صعيد مجتمعه فيقوده ويسير به خطوةً إلى الامام غير أ نّنا هنا لا نواجه حالةً من تلك الحالات ؛ لوجود فوارق كبيرة.

فمن ناحية نحن نواجه هنا طفرةً هائلةً وتطوّراً شاملا في كلّ جوانب الحياة، وانقلاباً في القيم والمفاهيم التي تتّصل بمختلف مجالات الحياة إلى الأفضل، بدلا عن مجرّد خطوة إلى الأمام.

إنّ مجتمع القبيلة طفر رأساً على يد النبي إلى الإيمان بفكرة المجتمع العالمي الواحد. وإنّ المجتمع الوثني طفر رأساً إلى دين التوحيد الخالص، الذي صحّح كلّ أديان التوحيد الأُخرى، وأزال عنها ماعلق بها من زيف وأساطير. وإنّ المجتمع الفارغ تماماً تحوّل إلى مجتمع ممتلئ تماماً، بل إلى مجتمع قائد يشكّل الطليعة لحضارة أنارت الدنيا كلّها.

ومن ناحية أُخرى أنّ أيّ تطوّر شامل في مجتمع إذا كان وليد الظروف والمؤثّرات المحسوسة فلا يمكن أن يكون مرتجلا ومفاجئاً ومنقطع الصلة عن مراحل تمهّد له، وعن تيار يسبقه ويظلّ ينمو ويمتدّ فكرياً وروحياً حتى تنضج في داخله القيادة الكفوءة لتزعّمه، وللعمل من أجل تطوير المجتمع على أساسه.

إنّ دراسةً مقارنةً لتاريخ عمليات التطوّر في مختلف المجتمعات يوضّح أنّ كلّ مجتمع يبدأ فيه هذا التطوّر فكرياً على شكل بذور متفرّقة في أرضية ذلك المجتمع، وتتلاقى هذه البذور فتكوّن تياراً فكرياً، وتتحدّد بالتدريج معالم هذا التيار، وتنضج في داخله القيادة التي تتزعّمه ؛ حتّى يبرز على المسرح كواجهة لجزء يعيش في المجتمع تناقض الواجهة الرسمية التي يحملها المجتمع، ومن خلال الصراع يتّسع هذا التيار حتى يسيطر على الموقف.

وخلافاً لذلك نجد أنّ محمداً (صلى الله عليه وآله) في تاريخ الرسالة الجديدة لم يكن حلقةً من سلسلة، ولم يكن يمثّل جزءً من تيار، ولم تكن للأفكار والقيم والمفاهيم التي جاء بها بذور أو رصيد في أرضية المجتمع الذي نشأ فيه. وأمّا التيار الذي تكوّن من صفوة المسلمين الأوائل على يد النبي فقد كان من صنع الرسالة والقائد، ولم يكن هو المناخ المسبق الذي ولدت فيه الرسالة وتكوّن القائد.

ومن أجل ذلك نجد أنّ الفارق بين عطاء النبي (صلى الله عليه وآله) وعطاء أيّ واحد من هؤلاء لم يكن فارق درجة كالفوارق التي تبدو بين بذرة وأُخرى من البذور التي تكوّن التيار الجديد، بل كان فارقاً أساسياً لا حدّ له، وهذا يبرهن على أنّ محمداً (صلى الله عليه وآله) لم يكن جزءً من تيار، بل كان التيّار الجديد جزءً منه. ←

ومن ناحية ثالثة يبرهن التاريخ على أنّ القيادة الفكرية والعقائدية والاجتماعية لتيار جديد إذا تركّزت كلّها في محور واحد من خلال حركة تطوّر فكري واجتماعي معيّن فلابدّ أن يكون في هذا المحور من القدرة والثقافة والمعرفة مايتناسب مع ذلك، ولابدّ من أن يكون تواجدها فيه طبقاً لما يعرف عادةً من أساليب في حياة الناس، ولابدّ من ممارسة متدرّجة أنضجته ووضعته على خطّ القيادة لذلك التيار.

وخلافاً لذلك نجد أنّ محمداً (صلى الله عليه وآله) قد مارس بنفسه القيادة الفكرية والعقائدية والاجتماعية، دون أن يكون تاريخه ـ كإنسان أُمّي لم يقرأ ولم يكتب ولم يعرف شيئاً من ثقافة عصره وأديانه المتقدّمة ـ يرشّحه لذلك من الناحية الثقافية، ودون أن تكون له أيّ ممارسات تمهيدية لهذا العمل القياديّ المفاجئ.

وعلى ضوء ذلك كلّه نتهي إلى الخطوة الرابعة التي نواجه فيها التفسير الوحيد المعقول والمقبول للموقف، وهو افتراض عامل إضافي وراء الظروف والعوامل المحسوسة، وهو عامل الوحي، عامل النبوّة الذي يمثّل تدخّل السماء في توجيه الأرض : {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِرَاط مُسْتَقِيم}

ولا يعني تفسير الرسالة على أساس الوحي والإمداد من السماء بدلا عن العوامل والظروف المحسوسة إلغاء هذه العوامل والظروف عن التأثير نهائياً، بل إنّها مؤثّرة وفقاً للسنن الكونية والاجتماعية العامّة، ولكنّ تأثيرها إنّما هو في سير الأحداث، ومدى ماينجم عنها من مؤثّرات لصالح نجاح الرسالة أو لإعاقتها عن النجاح. فالرسالة كمحتوى حقيقة ربّانية فوق الشروط والظروف المادية، ولكنّها بعد أن تحوّلت إلى حركة إلى عمل متواصل في سبيل التغيير، يصبح بالإمكان ربطها بظروفها وما تكتنفها من ملابسات وأحاسيس.

فإذا قيل مثلا : إنّ شعور الإنسان العربي بالتمزّق والضياع وهو يجد نفسه يجسّد آلهته ومثله الأعلى في حجر يحطمه في لحظة غضب، أو حلوى يلتهمها في لحظة جوع جعله يتطلّع إلى الرسالة الجديدة.

أو قيل مثلا : إنّ شعور البائس والكادح في المجتمع العربي بالظلم والتعسّف من قبل المرابين والمستغلّين دفعه إلى تأييد حركة جديدة ترفع راية العدالة، وتقضي على رأس المال الربوي.

أو قيل : إنّ الشعور القبلي لعب دوراً مهمّاً في حياة الرسالة، سواء ما كان منها على مستوىً محلي كمشاعر الصراع والتنافس بين قبائل قريش وما أسبغه انتماء النبي إلى عشيرته من حصانة وهيبة حمته من الأعداء، أو ما كان منها على مستوىً قومي كمشاعر عرب جنوب الجزيرة تجاه شمالها. ←

خلاصة النص أن شمولية الرسالة وجمالية وشمول القرآن أكبر من أن تخرج من إنسان عادي في ظروف البادية والقرية البعيدة عن سبل الحضارة وهذا ما يحتم علينا النظر لإنتاج هذا الإنسان البديع على أنه تسديد قوة إلهية كبرى، فإذا وصلنا إلى هذه الصنارة وغمزت فينا، فلا مناص من النظر بعين التفحص للإبداع والقيمة الكبيرة لما هو مطروح من إنتاج (قرآن، حديث، سلوك، فكر، اقتصاد، عسكرية، إدارة، تاريخ، دولة، لياقة، و.. و.. و.. إلخ)، وهنا تبدأ معجزة تجر معجزة:

- القرآن
- التشريع
- الأخلاق
- السلوك الإنساني
- التقدم العلمي

إن نقطة حساسة أشرتُ إليها بطرق متعددة، قد ذكرها سيدنا الصدر وهي انعدام المقدمات المعرفية والحضارية لنشوء حضارة فجائية على يد الرسول بشكل قرآني. وأضيف بأن هذه الحضارة حين امتدت إلى حضارات أصيلة لم تذب فيها بل ذوبت الحضارات مما يعني

أو قيل : إنّ ظروف العالم المتداعي والأحوال المحرجة التي مرّت بها الدولتان العظيمتان الرومانية والفارسية على المسرح الدولي وقتئذ أشغلت هاتين القوّتين الكبيرتين بنفسيهما، وحالت دون تدخّلهما السريع في إجهاض الحركة الجديدة في الجزيرة العربية.

إذا قيل شيء من هذا القبيل فهو أمر معقول وقد يكون مقبولا، غير أنّ هذا إنّما يفسّر سير الأحداث، ولا يفسّر الرسالة نفسها. انتهى.

قوتها الهائلة التي أسقطت مفاهيم أمم تطورت وترسخت خلال آلاف السنين وبمختلف أنواع المعانات والحروب والأموال والرجال والصروح والأوراق والمجالس والمجتمعات المتلاقحة.

أليس غريبًا أن تأتي أمة غازية فتصحح طريق حضارات متعددة بصورة طوعية وتبنيها بناءً جديدًا، بعكس العادة من تأثير الأمم الحضارية في غيرها حتى لو هزمت في المعركة.

وأضيف إلى ما قاله سيدنا الصدر رحمه الله:

«إذا قيل شيء من هذا القبيل فهو أمر معقول وقد يكون مقبولاً، غير أنّ هذا إنّما يفسّر سير الأحداث، ولا يفسّر الرسالة نفسها»

أقول وأنه قد يفسر نجاحات آنية لقيادات ليست بمستوى العالمية بعد الرسول وليس يفسر سير الأحداث فقط. وهذا أمر مهم يحير الكثير حيث يعتقدون أن نجاح النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان بسبب هذه الظروف التي ذكرها السيد بدليل نجاح من بعده على نفس المنوال مع أنهم لا يساوون قلامة ظفر منه. والحقيقة أن نجاحهم كان امتدادًا لإنتاج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ونجاحه من منجزات حضارية من الصفر ومن ظروف آنية ذكرها السيد سلسلت كل نجاح إلى نجاح ثان.

ولا تنس أخي باحث مسلم بأن الشهيد الصدر لم يتطرق لإعجاز القرآن مجردًا من شخصية الرسول، فهو اعتبر الأمر مزدوجًا بين علو مرتبة القرآن في الكلام وبين وساطته من رجل في بيئة لا تتحمل هذا العلو. وقد أشار إلى إعجاب وعجز الفصحاء في وقته من أسلوب وصياغة القرآن الكريم وعدم شكهم بأن هذا ليس كلام محمد صلى الله عليه وآله

وسلم وهذا يثبت مطلوبًا مهمًا وهو كون القرآن لا ينفك عن شخصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ولكننا سنبحث عن إعجاز القرآن بمفرده من باب تحديد الميزات المعروفة لنا لا التي لا تفهم من أسرار كتاب الله العجيبة، إذا شاء الله.

أرجو أن اقرأ للأخ القصدي التعريف والإشكالات حول المعجزة.

وشكرًا للجميع

ديمومة المعجزة دليل الصحة

الأخ الكريم على نهج علي ،

أحسنت كثيرًا فلا بد من ديمومة المعجزة وديمومة الدليل على صحة الديانة، حتى تكون الديانة مبرأة للذمة وهذا مرحلة متقدمة يجب الوصول إليها.

وما نورّت به المقال من نقل عن سيدنا الخوئي* نوّر الله ضريحه باعتبار القرآن كتاب هداية، فهذا يؤخذ بنظر الاعتبار ولكنه جزء من كيان شامل.

* نقل "على نهج علي" كلامًا للسيد أبوالقاسم الخوئي قدس سره نصّه: "ثم إن القرآن يختص بخاصة أخرى، وبها يتميز على جميع المعجزات التي جاء بها الأنبياء السابقون، وهذه الخاصة هي تكفله بهداية البشر، وسوقهم إلى غاية كمالهم، فإن القرآن هو المرشد الذي أرشد العرب الجفاة الطغاة، المعتنقين أقبح العادات والعاكفين على الأصنام، والمشتغلين عن تحصيل المعارف وتهذيب النفوس بالحروب الداخلية، والمفاخرات الجاهلية، فتكونت منهم في مدة يسيرة أمة ذات خطر في معارفها، وذات عظمة في تاريخها، وذات سمو في عاداتها، ومن نظر في تاريخ الإسلام وسبر تراجم أصحاب النبي صلى الله عليه وآله المستشهدين بين يديه، ظهرت له عظمة القرآن في بليغ هدايته، وكبير أثره، فإنه هو الذي أخرجهم من حضيض الجاهلية إلى أعلى مراتب العلم والكمال، وجعلهم يتفانون في سبيل الدين وإحياء الشريعة، ولا يعباؤون بما تركوا من مال وولد وأزواج". ←

قلنا أن المعجز يجب أن ينظر له بشمول عام ابتداءً من الرسول وظرفه وبيئته وانتهاءً إلى معجزة الكتاب الكريم. فالكل في الكل ينتج معجزة حقيقية وأساسها معجزة الرسول نفسه. ومفادها أنه من غير الممكن أن يكون بشرًا عاديًا بدون الوصل بالله قادر على إنتاج هذا التنوع العجيب في المنجزات الهائلة ومنها معجزة القرآن نفسه الذي عجز عن مجاراته البلغاء والمفكرون.

وقد أوضح ذلك سيدنا الصدر رضوان الله عليه ببيان بديع وتسلسل رائع نقله لنا الأخ الباحث المسلم.

فهنا يركز السيد الخوئي على جانب الهداية والقدرة الفائقة في التأثير والتربية، وربما هذا ما عبرت عنه: (أنه كتاب يدخل الجوانب الخفية من العقل ليبرم بإحكام كل عرى الإيمان ويجعلها في نقطة مضيئة ودائمة في عقل الإنسان . ولهذا دائما نفكر بأن دليل إعجاز القرآن نفسه هو قوته في الإقناع وقبوله عن قارئ سليم القلب والسريرة). انتهى.

نظرية الإحكام: عرض وبيان

سيدنا الكريم السيد مهدي زادك الله شرفًا،

يا أبا نادر لقد أردتُ أن أبسِّط الأمر فقلتُ كلمات مختصرة. ولو أردت أن أشرح الكلام لدخلنا بالتخصص، وفقدنا لذة الحوار القلبي.

وقد يصعب التبسيط لموضوع معقد، وسأحاول جهد الإمكان استجابة لطلبكم الكريم، وأعتذر إليكم مسبقًا راجيًا قبول هذه الوجيزة فيما سألت يا سيدنا سلام الله على آبائك الطاهرين.

فحبًا وكرامة لك سيدنا وسأحاول قدر الإمكان تبسيط الموضوع وأوضح ما طلبت توضيحه.

المقصود بجملة ".. قصور علوم الدلالة وجمالية الأداء اللغوي ..."

هو أن علوم اللغة (نحو، صرف، لغة) وعلوم المنطق والبلاغة والأصول اللفظية، هي علوم الدلالة وعلوم جمالية الأداء اللغوي.

هذه العلوم فيها ضوابط للأداء اللغوي وجماليته وإبداعه وهي ضوابط دقيقة ومتشعبة، ولكنها للأسف لا يمكنها أن تفرّق بين كلام الخالق والمخلوق.

بل يمكن أن تثمن عاليًا بيتًا للمتنبي أعلى من تثمين عشرة آيات قرآنية بسبب وقوع بيت الشعر وفق الضوابط لتلك العلوم أي وفق معيار الصناعة، وعلى الأخص علم البلاغة. بخلاف الآيات القرآنية، وهذه المشكلة يعرفها الضليعون في البلاغة وهذا يدل على أن عدم الاستجابة للتحدي مع وجود دواعيه لم يكن بسبب البلاغة والبيان وإنما بسبب أعمق منها بكثير.

فإذا كانت المعايير توصلنا لهذه النتيجة فلن يستطع بلاغي أن يرفع من كفة القرآن على ديوان ابن الرومي أو المتنبي.

رغم تسليمه الداخلي بالرفعة الحقيقية، ولكن صناعته تحدده بهذا المستوى.

فهو يقول أن بيت الشعر الفلاني للمتنبي فيه عشرة أغراض بلاغية بينما سورة الفاتحة أو الإخلاص بكاملها، فيها بضع أغراض بلاغية بموجب ما هو مقنن، ولا يوجد معيار يعتبرُ غرضًا معينًا واحدًا يعادل عدة أغراض مقابله.

فلا يوجد تمايز كيفي بين المعايير نفسها، بقدر ما يوجد تمايز كمي بينها بتعدد النكات والأغراض. بمعنى لا يمكن القول أن التشبيه في القرآن يعادل خمسة أغراض من المجاز والتورية والطي والنشر وحسن التخلص. فإذا ورد في آية غرض واحد كالتشبيه أو الاستعارة وورد في بيت شعر لأبي تمام خمسة أغراض كالمذكورات آنفًا فانه بحسب الصناعة يكون بيت الشعر أبلغ من الآية الكريمة، وهنا مبدأ الخطأ.

وهذا هو عذر البلاغي أو المنطقي أو اللغوي حين يميل إلى الكم في تجميع الأغراض دون الكيف في القيم. وإن كان يبحث الكيف في القيمة ذاتها كأن تكون هذه الاستعارة أجمل من تلك فهذا يتحقق في العنوان الواحد لا العناوين المتعددة.

وهذا لا يناسب قرآننا الكريم فلا يحق أن تقاس قداسته ومعجزته بهذه المعايير.

وأما قولي: "...وقدرتها الفائقة في بناء هندسة علاقات معنوية بروابط لغوية رائعة لينتج لنا العلوم بطريقة (عقلية – نفسية- رياضية- هندسية) مع غلاف جميل من عدم القدرة العقلية على الكشف الحقيقي".

فهذا يحتاج إلى شرح مستفيض ليس بالمقدور نشره بالكامل، ولكن لا بأس باختصاره وشرح أسسه.

وسأبدأ بشرح مختصر لنظريتي القريبة من القصدية والتي اكتشفت عدم وفائها بالمطلوب بسرعة.

في سنة ١٩٧٢ تولدت لدي فكرة – بعد أن عرفت الضوابط الدلالية وعدم قدرتها على التمييز بين كلام الخالق والمخلوق – مفادها أنه لا بد من وجود نظام بديل لهذه النظم اللغوية المعروفة، يجب أن يكون له قابلية التمييز، وتكون فيه العلاقات أكثر تعقيدًا وتحديدًا.

وهو يتأسس على أساس أن اللغة داخل الإنسان جزء من كيانه الحيوي فهي كائن حيوي كبقية الأحاسيس الحيوية العصبية غير أنه قابل للنقل والانتقال والمبادلة، تحكمه قوانين متعددة منها قوانين ذات طبيعة عصبية من تأثير الصورة والصوت وانتقال الحس، ومنها

عقلية مثل المعنى، والعلاقة بين اللفظ والمعنى والتركيب، ومنها نفسية ذات طابع جمالي سواء حسي أو نفسي أو معماري، ومنها هندسية ورياضية تتحكم بضرورة العلاقات بين المعاني والألفاظ سواء مع بعضها أو مع غيرها.

وهذا الكائن الحي لا تكون له حياة خارج عقل الإنسان كما هو سلوك الفيروس الذي لا يكون في الخارج إلا بلورات ملحية، ولكنه في داخل جسم الإنسان يكون كائنا نشطًا فعالاً جدًا.

وهذا الكائن اللغوي مكوّن من أجزاء الكلمات ومن أجزاء المعاني وهي مفرداتها الأساسية ولها معاني بذاتها وأساس كل لغة هي الحروف المفردة كالحروف الهجائية، فيمكن للحرف المعيّن أن يدل على الدفع أو على القبض أو على أي فعل أو صفة أساسية في الكون والتي تفسر بنظام الحركة، فالحروف لها معان أساسية. وحين تتألف لا تتألف بطريقة عشوائية اعتباطية – غير قانونية – وإنما بحسب نظام المعاني الخاصة بتلك الحروف، فنحن كبشر لم يكن اختراعنا للمعاني من تركيب الألفاظ بدون قانون تأليف أساسيات هذه اللغة المكونة من حروف لها معان خفية بذاتها يمكن أن تستكشف، وهذا يعني أن تركيب اللغة تشابه تركيب المواد الكيميائية أو المواد الهندسية الفيزيائية من مفردات أساسية بموجب قوانين مرنة قابلة للإبداع كما هو التعامل مع المنتجات الهندسة والكيميائية.

فلا يوجد ما يسمى بالوضع الاعتباري الجزافي والقبول به اجتماعيًا.

واللغة التي على الكرة الأرضية أصلها لغة واحدة تفرعت إلى لغات متعددة بحكم قابلية الإبداع، وقد قلت في موضوع عبد الصبور شاهين وقصة آدم* أن أحد الأدلة على الأصل الواحد لجميع البشر هي المفردات اللغوية الواحدة والبناء اللغوي الواحد.

فلم تكن العلاقة بين الشعوب هي توحيد (قابلية اللغة) بل توحيد (مفردات اللغة) وهذا يمكن البرهنة عليه بالاستقراء لمدى تطابق الألفاظ الأساسية في المعاني بين اللغات، مثل ألفاظ الطفولة العجيبة (بابا، ماما) التي وجدت حتى في الجزر النائية التي يفترضون أنهم من أصل غير أصل هذا الإنسان أساسًا، وقد اختلفوا في التزاوج بين الإنسانين على مر الدهر، وهذه اللغة المشتركة تبطل هذا الفرض وتؤكد وحدة الأصل، ولكن مما يدل بوضوح وجود كلمات وحروف أساسية بين جميع اللغات، فليس من قبيل الصدفة أن يكون فعل الملكية (حاز) موجود في جميع اللغات مثل هاز وهاس وآس. وغيرها كثير يطول بها الشرح.

وهذا النظام له وجهان.

الأول: هو جهة المتلقي

والثاني: هو جهة المنشئ.

ولا يقتصر في الاعتماد على ضوابط قائمة على أساس النص بما هو نص، ولا على علاقة اللفظ بالمعنى، بشكله المعهود.

وهنا لا بد من الاتجاه إلى فكرة الشكل (المحْكم) للنص ومساحته المحيطة وعمقه.

* وهذا الموضوع في كتاب العلامة المنار المسمى بـ (القليل المختار من مقالات العلامة المنار).

ففي جهة المتلقي هناك قواعد كثيرة تتحكم في تحليله للنص وهي تتكون من (أساسيات اللغة التصورية والتصديقية والجدية (المراد الجدي) + مجموعة القواعد الأساسية لتحليل + إرادة وأهمية المنشئ)، ودور المتلقي هو التحليل وليس الإنشاء.

وأما من جهة المنشئ (الملقي) فهناك قواعد كثيرة تتحكم في طريقة الربط بين اللفظ والمعنى ولكنه هو من يتحكم بها.

بمعنى أنه هو من (ينشئ) أو يتعهد بوضع اللفظ إزاء المعنى بحسب الطريقة والتركيب لينتج نتائج فردية لنصوص مفردة متعلقة به، ولهذا فلكل منشئ ومتكلم طابعه الخاص. ومبدأ هذه النظرية هو مسلك التعهد المنسوب للأمير السيد علي بن فتح الله النهاوندي المتوفى سنة ١٣٢٢هـ ١٩٠٤ م. وهو مسلك يبرر العلاقة السببية في الترابط بين اللفظ والمعنى ذهنًا، وقد تبناها السيد الخوئي ونقدها السيد الصدر واعتمد نظرية القرَن المخصوص، ونقدها السيد السيستاني وأبدلها بنظريته «الاعتبار الأدبي» وتحوّل الاعتبار إلى حالة تكوينية تدمج اللفظ في المعنى:

مرحلة الهو هوية في الربط الحاصلة من مقدمات ثلاث:

١ – الجعل.

٢ – الاستعمال مع القرينة.

٣ – التلازم.

ولكن بحسب المنظور العلمي فإن بإمكان مسلك التعهد أن يجيب عن الإشكالات الموجهة له، بضبط معنى التعهد بمعنى الإلتزام في الإرادة الجدية الابتدائية من جهة الملقي وإرادة هذه الإرادة الجدية من جهة المتلقي، وعلى كل حال فإن هذا المسلك وغيره يفسّر اللغة أفضل مما فسره دوسيسير بالبنيوية وتحليل الكتلة وجومسكي بالقابلية اللغوية التطورية فهي لا تتكفل تفسير العلاقة وإنما تقر بالعلاقة فقط، وإن كانت هذه النظريات مندمجة في الجملة مع نظريات الأعلام خصوصًا مبدأ القابلية اللغوية المتنامية منذ الطفولة.

وحين نأتي للقرآن نجد فيه ميزات كبيرة وفق هذه نظرية (الإحكام الدلالي) إن صح التعبير.

منها: أن منشئ القرآن هو الله وقد وضع نظامًا نصيًا له خاصية التخليق في المجال الحيوي للمتلقي وليس فقط التحليل، وهذا محسوس وجدانًا.

فهو أشبه ما يكون ببرنامج مضغوط حين يدخل لعقل الإنسان يبدأ بعمليات تخزين وترتيب وإنتاج ذاتي لبيانات خفية وظاهرة، بحيث يؤثر تكوينًا في المجال العقلي والنفسي التكويني للإنسان. فالله الخالق حين يبعث حزمة بيانات نصية يختلف كليًا عن إنسان عادي حين ينشئ نصًا يريد أن يصوغ فيه أفكاره بحدودها الواقعية (سواء كانت عالية الجناب أو منخفضة القيمة).

ومن هنا لا بد أن يُدرس كلام الله ليس بطريقة التحليل فقط، وإنما برصد الفاعلية الكونية في ذات المتلقي، وهنا ينبغي أن يكون المتلقي متيقظًا لجملة قواعد، أهمها أن كل لفظ في أي موقع يختلف بالمعنى مع نفسه في موقع آخر وأنه لا تصدق نظرية سيبويه بتقسيم

الاستخدام اللغوي إلى ما كان متغير النمط وما كان ثابت النمط على القرآن الكريم فالجميع متغير النمط (المعنوي) ومتغير المعنى في الحقيقة وفق هذه النظرية (إلا إذا كان يقصد بالنمط المعنى العام مثل الفاعلية والمفعولية)، لأن كل مفردة وكل نص محدد القيمة المعنوية ولهذا تصح في القرآن لغة خرق الثوبُ المسمارَ فصح (إن هذان لساحران) (والمقيمين الصلاة) لعدم الاختلاط المعنوي. وبهذا فلا تكرار في القرآن ولا خطأ ولا اختلاف، ويمتزج الاستعمال بالحقيقة إلى درجة تكاد تذيب أحداهما في الأخر لأن الاستعمال يكون ذو وظيفة محددة تكاد أن تكون منشئة لمعنى جديد، والاستخدام القرآني هو المرجع في فهم حدود المعنى.

ومن الميزات لهذا النظام أن يستخدم نظام المصفوفات الرياضية الهندسية لكشف المعاني وذلك سبب مهم جدًا.

وهو أن في اللغة العربية ألفاظ متقاربة المعنى أو لنقل معانٍ متقاربة بألفاظ مختلفة، وكذلك هناك معان متعددة للفظ واحد، وبموجب (الإحكام) الذي هو أساس قراءة القرآن المختلفة عن قراءة أي نص أدبي. لا بد من تحديد معنى واحد للفظ واحد في الموقع الواحد تحت ظرف واحد وبشرط واحد.

وتطبيق هذا بلا نظام لا يمكن الجزم به في القرآن، باعتبار عدم القدرة الحقيقة لاستيضاح الأمر، لأن المنشئ جلَّ أن نصل إليه، وهنا لا بد من اعتماد نظام مصفوفات يتكون من المحور السيني للمعنى والمحور الصادي للفظ وقد ينقلب ليأخذ صيغة هندسية جديدة من أجل الوصول الى التقاطعات الواضحة التي تقلل من المعاني غير المستخدمة والقيم السالبة للمعنى.

وبعد تفكير وتطبيقات على نصوص قرآنية تبين عدم كفاية هندسة السطوح وإنما يجب اعتبارها هندسة مجسمة لوجود بُعد ثالث (البعد العيني)، وهو الظرف أو الشرط، فأصبحت المصفوفة معقدة ولكنها مفيدة. فلو أخذنا مثال عن تركيب وليس عن لفظة مفردة وابتعدنا عن التطبيق على الحروف (لكون الحرف بعيد المنال فعليًا).

مثلا لو درسنا هذا المقطع من الآية {لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} فهنا لكل لفظ مكان في البعد الصادي في المصفوفة:

ص١: لا ينال

ص٢: عهدي

ص٣: الظالمين.

فمعنى ينال في النقطة ص١ س١ هي (وصَلَ إلى العهد)،

وفي النقطة ص١ س٢ (وصَلَ إلى الظالم)،

وفي ص٢ س١ (العهد بمعنى النبوة)،

وفي ص٢ س٢ (العهد بمعنى الإمامة)،

وفي ص٣ س١ (الظالمون فاعل)،

وفي ص٣ س٢ (الظالمون مفعول).

وبما أن النص وقع جوابًا لطلب الإمامة فيكون معنى العهد الإمامة تحديدًا، وبما أن الصياغة النحوية حددت أن الظالم مفعول لكونه منصوبًا وهذا بُعد ثالث حدد اتجاه المعنى في كلمة ظالم، فإن الترابط أصبحت نقاط اللقاء والتقاطع هي (ص١س٢) و(ص٢ س٢) و(ص٣ س٢)، وهذا يعني أن العهد هو الفاعل المتلبس بصفة الوصول فيكون العهد كيانًا معنويًا يتحرك باتجاه الإنسان فإذا كان ظالمًا لا يصل إليه ولا يتلبس به. وهنا تظهر جمالية اختيار (الظالم) مفعولاً وهو الكشف عن كون الإنسان لا يملك الوصول إلى العهد المخصوص بنفسه لأنه ليس فاعلاً فيه، والعهد ليس بمتناول يده، إنما العهد هو من يختاره، وهو من بيده الأمر، وهذا يعني بالضرورة كذب من يدعي أنه أخذ العهد من الله بنفسه، وليس باختيار الله، فيصبح لازم (ينال) بهذا التركيب أن العهد أمر جعليٌ له شروط الخاص وهو (عدم الظلم)، فتم التضييق على احتمالات كثيرة بطريقة الاستبعاد نتيجة التقاطع والظروف والشروط.

هذه فكرة بسيطة قد لا تكون دقيقة لسرعة الكتابة، ولكنها تعطي فكرة أولية عن تحليل النص على أساس المصفوفات. وليس هذا كل شيء لأننا قلنا أن من خصائص القرآن أنه فاعل داخل المتلقي.

فماذا تفعل جملة {لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} عقليًا ونفسيًا وسلوكيًا؟

الجواب: إنه إنشاء منظومة العدل الفكرية بالتوافق مع المنظومة العقلية المستقبِحة للظلم، ومن الناحية النفسية فهو الارتياح لاستبعاد الظالم عن جائزة العهد وعن إدارة المجتمع، ومن الناحية السلوكية هو القناعة بعدم طلب العهد ورفض التصدي بدون عهد جعلي.

إذن خلَقَ النص حالة راسخة من القناعة برفض تولي الظالم لسلطات الله على البشر. وهذا يسمى الاعتقاد، وهو أساس الكيان الإنساني وسلوكه. ويعرف هذا من خلال خصوصية موقع (الظالمين) بالنسبة للفعل (ينال) الذي يبادل بين الفاعل والمفعول – لأنه عبارة عن تواصل يصح من أي من الطرفين – فهنا وُجد بُعد ثالث يقرن بين منتجات الخط السيني فهو يحكم ويحدد اتجاه النص ويولد معان كثيرة من خلال نفي هذا الاقتران تحت ظرف معين – وهذا مثال بسيط غير معقد – وهذا الأمر يمارسه الإنسان بدون شعور منه بالتعقيد أو التكلف الفكري.

وفي سبيل تهيئة مصفوفات منتجة ينبغي إجراء جملة أمور منها جرد احصائي للمفردات المشابهة المستخدمة في القرآن للتأكد من كون المفردة محددة باستخدام معين فيه أو أن لها أكثر من استخدام – يعني بمعزل عن المعنى اللغوي العام وإنما بالاستخدام القرآني–، وهذا يعقد شبكة المصفوفات. وهنا ينبغي استخدام الذكاء أو ما يعرف حاليًا بالذكاء الصناعي في قراءة المصفوفات الكبيرة، مثل خوارزمية (ألفا بيتا) القائمة على أساس استبعاد أكبر كمية من النقاط غير المنتجة والإبقاء على نقاط التقاطع البياني (المنتِج). وبهذه الطريقة ستتحدد المعاني أكثر بل يمكن الادعاء انحصارها بها في أغلب الأحيان، فلا يوجد هذا الكم الكبير من الاحتمالات التي تضيّع مقاصد القرآن الكريم، ولكن في حالة المتشابه نحتاج إلى اعمال نظر وقوة ملاحظة بخلاف الاستخدام البسيط في المثال الذي ذكرناه الذي هو من المحكم.

ولا يقتصر نظام دراسة النص القرآني على هذا الجانب وإنما هناك جوانب أخرى كثيرة لا تقل أهمية، مثل تحديد نحو القرآن، ومنطق القرآن وبلاغة القرآن المختلفة عن

البلاغة العادية. ولعل أهم قضية هي كيفية خلق الأحاسيس لا نقلها كما يذهب السيد السيستاني.

القرآن خلاّق أحاسيس بينما الكلام العادي ينقل الأحاسيس. والفرق بينهما دقيق فنقل الأحاسيس يمكنك أن تضيف له أحاسيس إضافية ولكنك مقيد بما ينقله الإحساس، وأما القرآن فهو يريد أن يخلق عند القارئ إحساس معين مثل الإحساس بخطورة النار فيعطيها اسماءً ذات نبرة خاصة (الحطمة، الصاخة، الغاشية، حامية، الموقدة، المطلعة على الأفئدة، الطامة الكبرى، الجحيم ..).

فالله سبحانه جل أن يكون له أحاسيس ينقلها إلينا، وإنما يريد خلق الأحاسيس فينا، فإحساس المسلم قارئ القرآن بالنار إحساس مصنوع يصل إلى حد المشاهدة العيانية وبنظام متكامل من خلال خلق الإحساس بمراقبة العمل وبجزاء العمل وبحجم الجزاء بما يشكل وحدة ذهنية واحدة، فالنار دائمًا تناسب عمل الشر وحجمه، فكلما كانت صورة النار أضخم كان الإحساس بحجم الشر أكبر. وكلما كان إحساس الإنسان بالنار ضعيفًا كان الإحساس بحجم الذنب والشر ضعيفًا فتسهل اعمال الشر عند الإنسان. ولهذا قال العقلاء أن الدين رادع قوي عن الجرائم، وهذا من خلال رصد المفعول القوي للنص، للتصوير الهام لطبيعة الجزاء بحيث يتحول إلى صورة ماثلة عند المؤمن.

وهذا نوع من الإحكام الذي يناقض سلوك المفسرين بالتحيّر أمام هلامية المعاني والألفاظ، وتعدد الاحتمالات التي قال عنها الفخر الرازي في سورة النساء بأن لا يمكن الاستفادة من القرآن أحكامًا واضحة بل يستفاد بضميمة السنة والاجماعات. فهو يُشكل على قوله تعالى {حرمت عليكم أمهاتكم} في سورة النساء بعدة إشكالات ينتهي أن دلالتها على

تحريم الأم على ابنها غير واضحة من القرآن، ولا يمكن التمسك بها! وإنما يُصار إلى الفقه والحديث الشريف ليحدد المعنى.

هذا موجز ما فكرت فيه في ذلك الوقت.

ولكن بعد مدة قليلة من التفكير في هذا النظام وجدته قاصرًا، فهو يجازف في دعوى تغير الأنماط دائمًا وهذا خلاف الوجدان، ولا يعطي تفسيرًا حقيقيًا للحروف، ويبقى حتى في المجال الهندسي أقل قدرة على تفسير كلام الله بشكل كبير، وهو لا يفي بظروف كثيرة للنص مثل أسباب النزول والقرائن والسياق والظروف المحيطة بالنص.

وعلى سبيل المثال لو اعتمدنا مثالاً آخر مثل {إِنَّمَا يريد اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} على نظام المصفوفات قد لا يكون موفقًا – لأن السياق والموقع والنصوص المشابهة تختلق لنا شبهة كبيرة في البعد عن المعنى الحقيقي – ولا بد من استعمال حل آخر لتصحيح الوضع للاقتراب من المعنى الظاهر المؤيد. وقد قمت بدراسة هذا المثال ولكن لأنه كبير جدًا أترك الأمر لفهم الإخوة ومن يتعذر عليه الفهم أشجعه على البحث وتجميع النصوص القرآنية وسيجد بعض الأسرار في الفرق بين الرجز والرجس مما يفصل في المعنى ولكن على كل حال يحتاج البحث إلى نوع ثانٍ من التأصيل الفكري للتحليل اللغوي.

لهذا فقد اتجه النظر إلى النظام الشامل، وهو يعتمد (تكميم) اللغة بمعنى أن مفردات اللغة هي مفردات معيارية كميّة كما هي مفردات الفيزياء والكيمياء وعلى هذا فقد تم علم الكم (الفيزيائي و الفيزيائي الكيميائي)، فالمعاني الأساسية للغة هي في الحقيقة لا تخرج أبدًا

عن مبدأ (الكتلة- القوة- الزمن- الضغط - القوة الكهربائية - وقوة الضوء) وهو يعني بكل بساطة أنه ما من فعل أو مشتقاته إلا وهو يمثل (الحركة) ولوازمها، وبتفكيك الحروف والكلمات والمعاني نجد إمكانية الوصول لتكميم اللغة بحيث تعبّر عن قيم حسابية يمكن إعادة ترجمتها من جديد إلى المعنى، وبهذا فإن المعالجة اللغوية عبارة عن معالجة حسابية عميقة ومعقدة جدًا، تعتمد مبدأ التحليل الكمي للحروف والكلمات والمعاني وحساب طاقاتها ومساراتها وموارد اجتماعها وامتناعها، والعلاقة بينهما جوهريًا هي التطابق الرقمي أو القيمي، سواء كان مبدأ التخزين والتحليل يعتمد نظام المفتاح الفيزيائي (مفتوح – مغلق) أو نظام البروتين كما يقترح كثير من العلماء الآن ليكون نظام التخزين أكثر فاعلية عبر الأحماض الأمينية لأنها أكثر عددا كمفردات تخزين، فتختصر البيانات بشكل مدهش كما هو حال كتاب خلقة المخلوق - الجين الوراثي [الكروموسوم] - الذي يحتوي على أعجوبة حقيقية بالنسبة لنظام التخزين البياني حجمًا ودقةً ونظامًا.

ولا نعلم بالضبط ما يجري في الدماغ فهل له علاقة بالكروموسوم أم له طرق أخرى إضافية. فهذا لا يعنينا بقدر ما يعنينا تحليل اللغة إلى قيم حسابية لأن أسسها كلها خاضعة للتقييس الحسابي وبالتالي فهي جزء من هندسة رياضية غاية في التعقيد والتطور لم يبدأ البحث فيها جديًا لحد الآن، وإنما عندي تصورات ومنهجية للبحث لنظرية كم اللغة، ليس إلاّ.

وهذا يفسر جزئيًا ما اطلعنا عليه من علم الجفر ونظام التحويل اللفظي إلى قيم حسابية وإجراء المعادلات المتعاقبة ومن ثم تحويل القيم الناتجة إلى حروف ولقد اثبتوا عجائبًا من الأجوبة المهمة لأسئلة محددة، وهذا يدل على أن الجفر إما أن يكون مماسًا لسطح التكميم

أو أنه يعرف سر التكميم، وقطعًا فإن علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام بالجفر يختلف عمّا رأيناه من جفر رغم كونه أعجوبة حقيقية ولا يبعد عندي أنهم عليهم السلام يعرفون قيمة الطاقة الحقيقية لكل حرف ومعرفة المعادلات المنتجة للمعاني التي تتكون منها اللغة والعلوم وهو ما يفسر كون كتاب الجفر عندهم يجيب عن كل شيء وبحسب عموم قولهم فهو الذي يفسر القرآن بصورة حقيقية – ولعله يدخل الآية بطريقة جفرية لتخرج الأجوبة الحقيقية – وقد قال الامام عليه السلام: «... وهو الجفر وفيه علم الأولين والآخرين وهو عندنا» (بحار الأنوار ج٢٦) وقد نص الإمام الكاظم عليه السلام على الإمام الرضا عليه السلام ووصفه بأنه «ينظر معي في الجفر وليس ينظر فيه إلا نبى أو وصي نبي» وقال الصادق عليه السلام «وفيه ما يحتاج الناس الينا ولا نحتاج إلى احد» وقال «ما من شئ يحتاج إليه إلا وهو فيه». (يراجع الكافي لثقة الإسلام الكليني و بصائر الدرجات للشيخ الأجل الصفار).

وبالنسبة لنظام المصفوفات فقد وجدت أن النظام الأقرب هو نظام الطبقات المصفوفة layers وهو أشبه بنظام GIS (النظام المعلوماتي الجغرافي) حيث تنفصل طبقات المعاني الثلاثية الأبعاد لعدة طبقات شفافة وكلما كان التكرار والتقاطع واضحًا ومكررًا كانت القيمة أقرب للجزم بالتخصيص، وهنا يكون الوضع معقدًا جدًا لا يفي به التبسيط الذي شرحته آنفًا.

ولهذا لا يعتمد هذا النظام نظام (الإحكام) بالطريقة السابقة نتيجة استنطاق معنى الحرف وقوة الترابط، لما فيه من سلبيات لا مجال لذكرها ولكنه يعتمد نظام (الشمول) وهو لا يعتمد إحكامًا كاملاً، بل يقرّب النتيجة إلى أقرب نقطة تكون حجة عقلية وشرعية بإفراغ

الذمة في فهم النص – وهذا يتناسب مع نظرية معرفة متطورة تختلف عن نظرية المعرفة المعمول بها حاليًا والتي تعتمد على أن معنى العلم الحقيقي هو القطع –، فإذا تحقق الإحكام فبها ونعمتْ، وإذا لم يتحقق لا يسقط النظام كما هو في الفرض السابق، ولكنه سيحقق أقرب النتائج المعتبرة عقلاً وشرعاً. وهذه نظرية نمارسها كبشر عمليًا بصورة غير واعية ولهذا نحس بأن القرآن لا يمكن أن يدانيه كلام حتى لو كان الكلام منمقًا أكثر من القرآن، لوجود قوة عجيبة في عقل الإنسان ذات قدرة على التحليل الرياضي وعمل طبقات متعددة ثلاثية الأبعاد تدرس فيها النقاط بما يشبه التقدير النقطي لمتوسط مجتمع في علم الإحصاء، وبنفس الوقت حيث تزداد الطبقات والعينات النقطية يقوم بعملية التقدير المجالي لمتوسط مجتمع، للحصول على (مجال الثقة) لمتوسط مجتمع. كل هذا يقوم به العقل بصورة طبيعية ولا إرادية، ولكن فيما لو أعملنا الإرادة الواعية فستتحول النظم إلى دراسات معقدة تعتمد المعادلات والنظريات الإحصائية العالية، لتقريب النتيجة إلى أقرب قيمة، وبذلك يكون المعنى الناتج وفق هذا النظام أقرب للصواب وأبعد ما يكون عن العشوائية وعن تكثير الاحتمالات غير المنتجة التي يتمسك بها ذووا الغايات المنحطة لتكوين مذهبيات كرتونية مبنية على أساس اللعب على القيمة المعنوية للنصوص.

ففي آية {إِنَّمَا يريد اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} حاولوا العبث بالآية لأن البيانات الظاهرة على السطح تعطي نتائج مشوشة، ولا بد من تركيب مصفوفات معقدة جدًا على شكل طبقات شفافة متعددة، لنحدد القيمة الحقيقية للنص. وقد استخدم الوهابية البيانات الظاهرة على السطح بصورٍ شتى لتفريغ النص من قيمته، مثل أن هذه الإرادة تشريعية وأن التطهير لا يعني العصمة من الذنب وأن الأهل تعم

النساء، وهي بيانات مبنية على معطيات قرآنية في بعض الأحيان مثل الإرادة والتطهير لوجود نص مشابه يستخدم معنى التطهير من الحدث والإرادة استخدمت في مواقع أخرى بمعنى الإرادة الشرعية، بالإضافة لتعقيد استعمال الإرادة بين التكويني والشرعي في القرآن بشكل يحتاج إلى دراسة مستقلة معمقة للخروج بنتيجة حاسمة، ولولا التطويل والملل لذكرت هذا المثال بتفاصيله الكبيرة.

وبهذا اكتشفت أن النظام الحقيقي لاستكشاف علم جديد، يفرّق بين كلام المخلوق وكلام الخالق لا زال كامنًا في داخلنا، لم يخرج بصيغة علمية ورياضية بشكلها الدقيق، ولكن نظام (الإحكام) يمكن أن يكون أحد مفردات النظام الشامل إذا أدى إلى نتيجة قطعية غير مكيّفة، وبقواعد أدق وأكثر مرونة. و نظام الإحكام الذي يعتمد على الجدية في الإرادة يمكن تطبيقه على القرآن إلى حد كبير، ولا يمكن تطبيقه على غيره بشكل دقيق، للفرق بين منابع الإرادة الجدية، حيث أن هذه إذا كانت من العالِم تختلف عنها إذا كانت من الجاهل، فكيف بالفرق بين الله والإنسان؟

نظرية القصدية: عرض ونقد

سيدي أبو نادر،

بعد مدة تزيد عن عشرين عامًا اكتشف أن أفاضلاً في الحلّة وبغداد من العراق خرجوا إلى خارج العراق و أنبؤوني بقيام محاولة في أواخر الثمانينات لإيجاد نظام فاعل في تحليل النصوص أسموه المذهب القصدي يشابه إلى حد بعيد ما توصلت إليه سابقًا، وقد اطلعت على كتاباتٍ أغلبها جميل وفيها ذكاء رائع، ولكن يشوب العملية أخطاء كثيرة ومجازفات واشتباهات تجعلها في بداية الطريق من أجل التصويب، ولكن الذي اكتشفته في المجموعة القائمة على البحوث أنها تجزم بقوة ولا تقبل النقاش وترفض المخالف بشكل سريع وقاطع. وهذه مشكلة بحد ذاتها.

ملخص فكرة القصدية و ما فهمته من خلال كتاباتهم:

إن آدم حين خُلق، خلَقَ الله معه قدرة عجيبة تفوق قدرة الملائكة، وهي قدرة توليد اللغة وثبات معاني الحروف بذاتها داخل العقل، واللغة تبدأ من معنى الحرف (اللازم)، فينبغي لمن يريد أن يستكشف معاني الحروف الحقيقية عليه أن يدرس اللغة الموحدة وأن يحاول التبحر والمتابعة لكل لفظة في كل لغة وتحليلها فنستخرج من هذا الاستقراء معنى

الحرف، فكل حرف له معنى، مثلاً الألف له معنى الزمان والمكان والباء له معنى انبثاق الحركة فجائيًا بقوة والراء تفيد تكرار الحركة وهكذا، وبتركيبها يتكون معنى منها لا يمثل جزئياتها ولكنه يمثل مجموعها.

و بما أن القرآن الكريم كلام الله فلا بد أن يكون قد استعمل الحروف وفق النظام الأساسي الصحيح، وليس بحسب أخطاء الاستعمال، والفرق هنا بين ما توصلت إليه سابقًا وبين القصدية أنهم يقولون بأن تغيّر الاستعمالات ليس (للإبداع) وإنما (للأخطاء) لأنهم يقولون بأن النظام الأساسي عند آدم هو قمة الصواب والبقية تحريفات، و اللغة العربية عندهم حاولت المحافظة على القواعد الحرفية الصحيحة إلى حد ما، لأنها بقيت في نفس الأرض التي نشأت منها اللغة الأم، وهذا العامل الجغرافي مهم.

وحين نزل القرآن نزل بالقواعد الصحيحة، فيمكن من لفتات الاستعمال القرآني مع المقارنة مع اللغات الأخرى نستكشف جوهر معنى الحرف، وبهذا يمكن إرجاع البحث في القرآن نفسه على هذا الأساس، بمعنى أننا حين نمتلك هذه الأدوات الأساسية في عمق جذور اللغة نتمكن من معرفة القرآن نفسه بطريقة جديدة فيكون القرآن كاشفًا عن نفسه بنفسه في نظام فريد.

وبعد ذلك يؤكد الفكر القصدي على مرحلتين من المنظور للمعاني

الأول يتعلق بـ (جهة الملقي والمتلقي والعلاقة بين اللفظ والمعنى)

والثاني هو (نظام التجميع والتفكيك الهندسي).

ففي المنظور الأول رأوا أنه في زمننا أن الملقي هو الله والمتلقي هو (آدم المحرّف) وليس (آدم الدقيق الخالي من شوائب الانحراف الإنساني في اللغة)، ولهذا علينا أن ندرك عملية إعادة بناء آدم الحقيقي فينا، وذلك بدراسة العلاقة الحقيقية بين اللفظ والمعنى وإدراك مفرداتها.

وهم هنا يتشددون ويرون الخطأ الفاحش لنظريات الكثير من علماء الأصول في العلاقة بين اللفظ والمعنى، فهم يلومون جميع علماء الأصول باستبعادهم لمعنى الحرف بذاته – وليس المعنى الحرفي المعروف –، ويستنكرون بشدة القائلين بأن جوهر العلاقة هو الاعتبار كالشيخ الآخوند أو التعهد كالسيد الخوئي أو القرن كالشهيد الصدر، ولكنهم يرتاحون جدًا لنظريات قديمة تقول بذاتية العلاقة أو باتحاد اللفظ في المعنى اتحادًا اندماجيًا لا تفريق فيه في الهوية بحيث يكون هو هو، وهذا ما يقول به السيد السيستاني بتفصيل عنده. وهي نظرية قديمة قدم الفكر اليوناني والبابلي وغيره.

وفي المنظور الثاني:

يعتمد النظام على الإحصاء والاستنتاج لجميع استخدامات اللفظة بالنظر لحروفها وتركيبها الحرفي، ويقيم النظام جدولاً للحروف بحسب معانيها في الحركة والاتجاه والزمن والمكان وغيرها، ثم ينتقل ليقيم اقترانات معنوية ولفظية بمراعاة الحروف ومعانيها.

وعندهم مرحلتان قد تتعاقبان مكررًا على في نفس المعالجة وهي التفكيك والتجميع. فأما التفكيك فيعمدون فيه إلى تفكيك اللفظ إلى جذره الصرفي ثم يفكك كل حرف إلى معانيه الأساسية المطابقة للمعاني العقلية، ثم يُدرس الحرف وموقعه وقيمته، ويستنتج منه

(اتجاه معنى) يقوم بعد ذلك (بإنتاج معنى) بالمزاوجة من خلال النصوص المعالجة لنفس القضية، وقد يضطر المحلل إلى التفكيك من جديد حين تتداخل الألفاظ والمعاني، فلو جاء لفظ يعرف بأنه استخدام مجازي فلا يسلّمون مطلقًا بهذا الحكم فيقومون بالتفكيك ثم التجميع ثم التفكيك ثم التجميع حتى يصلون إلى أن معنى الكلمة الأعم من الاستخدام اللغوي الدارج فيكون الاستخدام القرآني استخدام في (الأعم) ولهذا فلا مجاز ولا اشتراك ولا ترادف، لأنه ينطبق عليه بمفرده على الحقيقة.

ويستخدمون من أجل ذلك الجداول الثنائية الأبعاد في الغالب، وحتى لاأبخسهم حقهم أرى أنهم يستخدمون فعلاً عمليات معقدة لها أبعاد ثلاثية للجدول بحيث لا يكون المسار خطيًا، لأن البُعد العيني يغيّر موقع النقطة ارتفاعًا وهبوطًا بحسب القيمة المسلطة عليه، ولا يشيرون إلى استخدام الطبقات المعقدة. ويجب أن ننتبه إلى أن أساس القواعد عندهم وهي معاني الحروف مستنبطة بطرق ظنية يعتقدون أنها وصلت لمرتبة القطع.

للمثال على ذلك كلمة (قوامون) في الآية الشريفة {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ..} (النساء/٣٤).

يتم إرجاع الكلمة إلى جذرها الصرفي وهو قوَم وقوَم مكونة من ثلاثة حروف (ق – و – م) فالقاف هي الحركة باتجاه محدد والواو هو الحركة المستديمة (الاستدامة) والميم هو التمام المكاني أو الهالة التامة المحيطة بالشيء وهذا التركيب يعني السلطة والنفوذ والاحاطة والإدامة. فيكون معنى القوامون هنا ممارسة النفوذ في ترتيب الأسرة وإدامتها، وهذا المعنى يختلف عما يفهمه أهل اللسان ببعض الخصوصيات، وبما أنّ الباء في قوله {بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} هي باء سببية عندهم وأن التفضيل هو تفضيل العقول والحزم في إدامة

الأسرة فيكون المعنى هو أن السلطة بإدامة الأسرة بيد الرجل إذا كان أفضل عقليًا وإلا فهي بيد المرأة إذا كانت أفضل من هذه الجهة، فهم يقولون أن هذه الآية تمثل قراءة الواقع، ولا تمثل تشريعًا، ويغضون الطرف عن المقطع الآخر {وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ} الذي يمثل تشريعًا قطعيًّا وهو عنوان النفقة والذي فسر به الفقهاء معنى القوامة فالقوامة عندهم النفقة. ولكن الحق يقال أن هنا أمرًا محيرًا وهو عطف {وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ} على {بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} والذي يدل على أنه قسيم له وليس قسمًا منه، فلا يصح أن يكون مفسرًا له كما فهمه الفقهاء، فلا بد أن التفضيل غير النفقة ولكن أما كلاهما قراءة للواقع أو كلاهما تشريع، وهذا لا يمكن الجزم به وهو محل تأمل، غير أن القصديين يرون أن التفضيل قراءة واقع ولا يتطرقون للنفقة، كما بدا لي من الحوار معهم.

وفي سنة ١٩٩٨ م تم طبع النظام القرآني من قبل المجموعة، وهو كتاب يجمع بين الروعة والاشتباهات بشكل يشوش الذهن.

يحاول الكتاب أن يستكشف النظام القرآني على أساس عدم التكرار وعدم التعدد في المعاني وإنما قصدٌ واحد للفظ واحد بحسب نظام الإحكام.

و بقدر ما أبدع هذا النظام وأثار الذهن في نواحٍ فقد فشل فشلاً ذريعًا في نواح أخرى.

ويجب الاعتراف بأنه محاولة مهمة للتوصل إلى معايير للإعجاز القرآني مهما اختلفنا في النتيجة. وسآتيك بمثالين واحد للفشل وآخر للإبداع غير الموظّف.

● المثال الفاشل:

في المحاولة الأولى لإبطال المترادفات أعطى مثالاً وخلُص إلى نتيجة غريبة ومجازفة علمية لا يمكن أن نسلّم بها. وسوف أنقل لك الكلام وبعد ذلك أعلق:

قال في صفحة ٣٧ من النظام القرآني:

(نلاحظ الآن الاختلاف في الترتيب لحدث واحد في آيتين:

سورة البقرة \ ٥٨

{وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ

فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً

وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ

نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ

وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ}

سورة الأعراف \١٦١

{وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ

وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ

وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا

نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ

سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ}

نلاحظ هنا أن الاختلاف لم يقتصر على التركيب عمومًا بل على كل مركب فيه وأن الاختلاف لم يقتصر على الترتيب بل شمل التغيير بالألفاظ مما يؤكد عند التطبيق الواسع التفصيلي للمنهج على الآيتين أن القرآن لم يكرر الحدث بل الحدث نفسه كان مكررًا في واقعه التاريخي – حيث كانت النتيجة من تكرار الأوامر بصورة مختلفة، ثبات القوم على نفس النهج – لأن المركب الذي يتلو ذلك والذي هو شطر من الآية اللاحقة هو الوحيد الذي لم يطرأ عليه أي تغيير لا في الترتيب ولا في الألفاظ وهو قوله تعالى:

البقرة \٥٩ {فبدّل الذين ظلموا} الأعراف \١٦٢ {فبدّل الذين ظلموا}

انتهى النقل.

وبعد ذلك حاول إثبات وحدة النتيجة لحدثين مختلفين، وخلص أن من خلال تبدل الحروف والكلمات والأسلوب بالتقديم والتأخير والإضافة والحذف لا بد من القول بوجود حدثين يتكلم عنهما القرآن وليس حدثًا واحدًا بصياغتين لغويتين فلا تكرار.

والتعليق واضح جدًا، إن المجازفة في اعتبار القضية حدثين منفصلين من خلال التغاير التركيبي واللفظي، والإصرار عليها من دون اعتماد أي دليل، حتى أنه لم يستأنس بشيء تاريخي، بما لا يمكن تبريره.

أعتقد أن هذا المثال خير دليل على الفشل في التطبيق على القاعدة، فكيف يجازف هذه المجازفة ويدعي بأن الله لم يكرر الكتلة النصية إلا لأن الحدثين مكرران؟ وكل حدث صاغه بشكل مختلف! فهل يمكن أن نستنتج من الاختلاف هذه النتيجة؟

لو قال أنه يُحتمل، لقلنا نعم قد يكون.

و اختلاف التعبير عن الحدث الواحد لا يعتبر دليلاً على تعدده في ذاته مهما قلنا بحيوية الحروف ومعانيها، ومع أننا نؤمن أنه لا تكرار، ولكن ليس بهذه الطريقة، وإنما نحتمل أن الإعادة للقصة كانت لغرض ثان ولمقصد آخر غيره في تلك القصة ففي القصة الأولى هي جزء من قصة الخروج بصيغة المعاناة وجدلية بني إسرائيل وعدم اعتنائهم بالنعمة والثانية تتعلق بعلاقة بني إسرائيل بالإسلام فهي تذكرهم أن هذا هو الرسول الذي بشركم به الله والذي أنعم عليكم سابقا بالمنّ والسلوى والذي أوجد لكم طريقة للخلاص من الذنوب بباب حطة.

فهذان غرضان يجعلان القصة غير مكررة في واقعها من ناحية نفسية وموضوعية. فما الداعي لاعتبارهما قصتان مختلفتان؟

وإن أدنى مراجعة للقصتين في القرآن تكشف البعد عن الحقيقة لما قام به المهندس عالم سبيط النيلي من توليف فكرة الحدثين.

وهذه هي الآيات لمن لا يجد في نفسه همة في مراجعة القرآن:

آيات سورة البقرة:

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ* وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ * وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاَءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ * وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * [وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ] ٥٨ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}

آيات سورة الأعراف:

{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ * قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذْ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِب بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * [وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ] ١٦١ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ * وَاسْأَلْهُمْ عَنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنْ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ

الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لاَ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ * وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

- المثال الناجح والمبدع:

في قاعدته بنفي المجاز في القرآن أورد عدة أمثلة منتقاة بعناية، فبغض النظر عن كونه اختار آيات يمكن المناقشة فيها وقد غفل عن آيات لا يمكن المناقشة في مجازيتها مثل بعض الآيات التي تنسب الأعضاء إلى الله أو الحالات مثل الاستهزاء و السخرية فهذه لا يمكن اعتبارها استعمالاً حقيقيًا قطعًا، إلا بمجازفة تغيير المعاني المخصوصة إلى عموميات غير منصوصة، وهذه مجازفة أكبر من مجازفة نفي المجاز كليًا. وهذا تهرب من الحقيقة وإخفاء لإخفاق الدعوى في هذا المجال.

لقد بحث المعنى المجازي المدعى في آية (القرية) وحاول أن يوجد قاعدة بيانات ذات امتداد طويل، ولطيف، ليثبت أن ورود كلمة قرية لم يكن مجازًا أو يحتاج إلى تقدير كلمة (أهل) قبل القرية.

بل هي نفسها تأتي بمعنى الأهل – تبقى مشكلة ورود إضافة الأهل إليها في نصوص قرآنية وقد عالجها بصورة مقبولة –.

وهذه هي الآية:

{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} (النحل/١١٢).

في هذه الآية رأى أنهم لم يستطيعوا تقدير محذوف لأن الأحكام كانت متعلقة بالقرية نفسها (آمنة، رزقها، فكفرت، فأذاقها) ولو تم تقدير محذوف لوجب تبديل كل هذه الكلمات (أمنوا، رزقهم، فكفروا، فأذاقهم). بناءً على أن معنى القرية هي البناء والحيطان، وعليه فلا بد هنا من ورودها مجازًا بإطلاق اسم المحل على أهله.

ولكن النيلي لم يقبل أساسًا معنى القرية بمعنى الحيطان والبناء، بل هي بمعنى السكان عنده وأقام أدلة لطيفة من تقاطع بيانات قرآنية.

منها وصف القرية بالخاوية على عروشها، الذي يوافق وصف الإنسان كما ورد في الآية الشريفة {كأنّهم أعجاز نخلٍ خاوية} ثم يصعّد من المعنى بذكاء مفرط حيث يلتقط الآية الكريمة في سورة الحج ٤٥

{فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ}

فقال لو كان الخواء صفة البنيان لما صح النص على عدم تهدم البنيان، فالبئر معطلة وليست عاطلة والقصر مشيّد يعني مجصص الجدران، وهذا دليل الحداثة في الصنع والسلامة، فلا بد أن المقصود من الخواء هو موت السكان بطاعون مثلاً بمعنى موت أهل القرية دون تأثر القرية نفسها بشيء، فتكون القرية هي نفس السكان وليس المساكن.

طبعا هذا المعنى لطيف جدًا ومبتكر، ولكنه لم يوظفه بشيء عدا نفي المجاز، بينما قد اكتشفت هذا المعنى مبكرًا لنفس أسلوب المعالجة قبل أكثر من عشرين عامًا، ووظفته وبنيت عليه فكرة فقهية جديدة في حينه، ملخصها أن الفكر والفقه الإسلامي لا يقول بالشخصية الاعتبارية المعنوية في الفقه بخلاف القانون العالمي المعاصر، وهذه الآية تشير إلى شخصية معنوية بكل وضوح، وهذا حل لأكبر أزمة فقهية تواجه الفقه الإسلامي، حيث أن عدم اعتراف الفقهاء بالشخصية المعنوية يعني كوارث قانونية في العصر الحديث، وحلهم للقضية غير مجدٍ، فهم يحلونها: بأن الشركات والمؤسسات والدول محكومة لقاعدة اليد، وليس لها شخصية معنوية تملك وتجازى، فالاعتبار لصاحب اليد على المؤسسة بأي نظام كان.

وهذا يجعل من الإسلام دين لا يوافق العصر مطلقًا لأن أساس كل التصرفات القانونية الآن في جميع العالم هو الشخصية المعنوية، لإقامة المؤسسات والشركات والدول المحكومة لنظم داخلية ودساتير توزع الصلاحيات والمنافع على المساهمين أو الشركاء أو عموم ذوي الحقوق كالشعب مثلاً، ولا حل لهذا إلا بالاعتراف بالشخصية المعنوية، حتى

تصحح التصرفات وإلا فإن الإسلام يكرس الدكتاتورية والتصرف الفردي والمسؤولية الفردية.

وقضية القرية حين يكون معناها المجتمع وأن المجتمع (يجازى ويرزق ويمنع) أي يملك فهو عين الشخصية المعنوية، ونص القرية اعتراف بكلي الأمة وشخصيتها المعنوية، وحين تأتي نصوص تنص على (أهل القرية) فهذه لا تنفي كون القرية هي المجتمع المعنوي وإنما قد يكون لمناسبة ما استخدم القرية بمعنى التجمع السكاني لا المجتمع من أجل أن تعني بأن الفرد هو جزء صغير من المجتمع وليس شخصية الأمة بما هي أمة لتحميله المسؤولية الشخصية وليس للمجتمع.

فالمجتمع له شخصية اعتبارية معتبرة عند الشارع المقدس وهذا يكفي لأن يؤيد الدليل العقلي القائل أن الملكية وغيرها أمر اعتباري يمكن أن يتعلق بأمر اعتباري كلي سواء كان عوضًا أو مالكًا.

فهذان مثالان أحدهما للفشل والآخر للإبداع، وعلى العموم هناك اشتباهات كبيرة في المنهج القصدي يجب أن نعترف بها عسى أن تتطور وتحسن إلى طريقة أكثر فاعلية، وأعظم قدرة على أداء جيد في التفريق بين كلام المخلوق وكلام الخالق.

ويجب أن نعرف أن المنهج القصدي يتوجه لعقول تؤمن بأن القرآن كلام الله باعتراف أصحابه، دون غيرها من عقول الشكاك والرافضين.

و في نفس الوقت يكرر المرحوم عالم سبيط النيلي أنه نظام يثبت إعجاز القرآن!

وقد يُرد عليه أن من يؤمن لا يحتاج لهذا الإثبات ومن لا يؤمن لا يعتمد هذا النظام ... فكيف تحل القضية؟

فالقضية فيها مشكلة التوجه أي لمن نثبت القرآن؟ هل نثبته لمن يخالفنا ويقيم علينا الشبهات أم نثبته لأنفسنا؟ وفي الثاني لا نجد حاجة له إلا بمقدار التسلح أمام الشكاك والأول لا يقتنع بهذه الطريقة.

فالسيد النيلي لم يحل المشكلة كما يبدو، وهذا قوله بالحرف الواحد ، ص٩:

«من يؤمن بها [مبادئ القرآن والإسلام] يقال له عليك أن تؤمن بالنظام الهندسي المحكم للقرآن على ضوء تلك المبادئ وإن كنت لا تدرك هذا النظام قبل اليوم. ومن لا يؤمن يقال له: هذا هو النظام القرآني وعليك أن تؤمن به وبتلك المبادئ – وكل ذلك إنما هو احتجاج لا غير فلا إكراه في الدين كما هو معلوم».

فبالله عليك يا سيد مهدي كيف يمكن لهكذا واقع أن يحقق إعجاز القرآن لأول مرة في التأريخ؟ ولمن نخاطب في الحقيقة؟

ولعلنا ندافع عنه بطريقة ثانية ونقول أن تثبيت النظام القرآني يكشف عن دقة في الاستخدام يعجز عنها البشر وبهذا يثبت الإعجاز بما هو إعجاز بغض النظر عن جهة الخطاب.

إن المنهج القصدي يجبر المؤمن على اتباع المنهج القصدي ويقترح على الكافر التفكير به لأنه لا يملك عليه سلطانًا، بينما نرى أن القرآن في الحقيقة له سلطان نفسي على

الجميع ولكنه سلطان من نوع مخصوص، بخلاف هذا الطرح، كما في مرسل البحار عن مولانا الصادق عليه السلام: «لقد تجلى الله لخلقه في كلامه ولكنهم لا يبصرون»، فالقرآن له سلطة تكوينية وصورة ذهنية تكوينية مختلفة حين يسمعه الإنسان حقيقة، وليس لقلقة لسان أو طرب لصوت، حيث أعتقد أن القرآن يشكّل طبقات كبيرة داخل عقل الإنسان من المصفوفات البيانية النقطية والمعلوماتية تتداخل مع كل كيان الإنسان وما على العبد إلا أن يصغي إليه جيدًا وأن لا يستخدمه استخدامًا سيئًا لأن هذه الجداول نفسها يمكن أن تداخل معلوماتها مع الغير – حين لا يتبع نظاما هندسيا صحيحًا – وتنتج إنتاجًا معاكسًا. وهذه هي طبيعة كل جدول بيانات معقد، فأما أن تقرأ صحيحًا فتأخذ نتائج صحيحة وإما أن تقرأه خطأ فتأخذ نتائج خاطئة، والمشكلة كما قلت، أن القرآن يتداخل تكوينًا مع العقل البشري وهذا بالتجربة والمشاهدة والمراقبة العقلية والنفسية لعينات كثيرة. وقد ورد في موثقة السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في جوابه للمقداد: «فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع وماحل مصدق **ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار** وهو الدليل يدل على خير سبيل وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل وهو الفصل ليس بالهزل وله ظهر وبطن فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة فليجل جال بصره وليبلغ الصفة نظره، ينج من عطب ويتخلص من نشب فإن التفكر حياة قلب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور، فعليكم بحسن التخلص وقلة التربص».

رغم أن كل الرواية شاهد على ما نقول إلا أن قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار» شاهد مخصوص على أن القرآن يفعل مفعولين متعاكسين، وللتنبيه هنا فإن كلمة ساقه تعني فعلاً ايجابيًا، فيكون معنى الكلام التقدم على القرآن بالتطويع للنص والتسخير والتبرع بالشر، وليس بمعنى تركه خلفه من دون اعتناء، لأن السوَق هو من فعل نفس القرآن لا من الابتعاد عنه إذا تأملت جيدًا، ولهذا فأنا أؤمن حقيقة أن من يقرأ القرآن وهو شرير كالوهابية وأمثالهم من المجسمة المشركين الأشرار محبي دماء المسلمين، فإنه يسوقهم إلى النار ولن يهديهم إلا إلى جهنم وبئس المصير، وهذا بنص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. وكل من يفتخر بمجرد قراءة القرآن اعتبره نصف مجنون لأن قراءة القرآن الحقيقية هي التدبر بآيات الكتاب واستكشاف عجائبه كما قال مولانا رسول الله في هذه الرواية الموثقة الحجة في العمل، وليس بلقلقة اللسان وتحسين الصوت وتكثير القراءة.

ويبقى عليّ أن اثني على منتجي فكرة النظام القرآني فهو محاولة جديدة تستحق المشاركة والتطوير، وفيها بذرة جيدة للتفكير في إيجاد طريقة جديدة لفهم الإعجاز القرآني، ولكن للأسف ينبغي أن يغيّر أصحابها من بعض طباعهم مثل العجلة والغضب والحدة في الحكم و تصعيد الظنيات إلى قطعيات التي جلبت لهم عداوات كثيرة، كما أحب أن يغيروا من نوع تعاملهم مع العلماء واحترام آرائهم، ومناقشتها بدون سب وتحقير لهم وهذا ظاهر حتى في كتاب النظام القرآني. حتى أن الأخ القصدي حفظه الله تعالى رغم أنه لا يعرفني ولا أعرفه شخصيًا ولكنني أعرف بعض أصحاب التيار المحترمين وأحبهم وقد حدثوني عنه فأحببته، فقد جابهني بشيء عجيب حيث اعتبر إخباري البريء له، بأنني اعرف الفكر

القصدي وأصوله، بأنه جواب مني (للطوب!) الذي رماني به، ويشهد الله إني لم ألتفت أنه يقصدني بكلامه القائل (وأجزم بأننا قد تهنا عن معجزة القرآن لا لشيء إلاَّ لأنّه رينٌ على قلوبٍ تعلمت من أهل العقيدة شكّاً مبطناً لا ينطق عنه اللسان إلاَّ نادراً وبخوف! وما ذاك إلاَّ لأن: (حذار أمية أن تقطعه) .. وكم من أمية في القلوب الواهة؟! .. فإنا لله وإنا إليه راجعون.)

وما كان ظني بأدبه الرفيع أن يقول أنه (طوّب) لي. مع أنني لم يخطر ببالي ذلك. واترك التقدير لكم بجملته (الطوب!). ولعله لا يعرف أننا ومنذ أن هدانا الله للإسلام كنا حربًا على أمية منذ بدر وأحد والأحزاب وحتى صفين وما بعدها.

والحقيقة إنني أحسست حين دخل الموضوع أنه يريد أن يقول أنكم جميعًا جهلة والحل عندي ولكن اقبضوه مني مؤجلاً فقررت أن امتحنه بجملةٍ عسى أن يفهم معناها لعلاقتها بالمطروح القصدي. فتبين لي أنه ذهب لوادٍ آخر.

فقد قلت له «فأكلفك تكليفًا شرعيًا أن تتفرغ لتعريف المعجزة وما قيل فيها وكيفيتها وما هو رد الفعل تجاهها.»

وكنت أقصد لغزين أو أكثر في الجملة ولكنه لم يلتفت إليها وغضب ولم يقبل من أحد إطلاقًا أن يطلب منه تكليفًا شرعيًا، فلم يحتمل أبدًا أن من يخاطبه قد تكون له الأهلية للحكم الشرعي، وقد اجمع الجميع على أن حكم الحاكم نافذ حتى على المجتهدين إذا كان بدون تقصير في المقدمات، وما كلفته به أمر لا تقصير فيه لأنه تكليف بالخير والبحث العلمي، ومع احتمال عدم الأهلية فإن هناك ألغازًا في الجملة.

اللغز الأول: أن السيد النيلي لم يقبل تعريف منهجه وقال لا يمكن تعريفه إلا بالتطبيق مع أنه يدعي أن هذا المنهج هو المثبت للمعجزة القرآنية فكيف يعرّف المعجزة بمنهج لا يمكن تعريفه؟ مع أن المعجزة لا تعريف لها بحسب الظاهر.

قال النيلي: «ولا يمكن إعطاء تعريف لهذا المنهج أو وصفه بأسطر ولا يمكن كذلك تحديد غاياته فمن طبيعة هذا المنهج أن التعريف به وتحديد غاياته وخصائصه وطريقة عمله ونتائجه تتم سوية من خلال تطبيقاته التي لا حدود لها».

فكيف يطالبنا الأخ القصدي بالتعريف؟ إذا كان منهجه نفسه لا يؤمن بضرورة التعريف؟ ومن ثم ينقل لنا: (إن التردد في تعريف الموضوع يعني التردد في ذات الموضوع) فهذا لا يتطابق مع ذاك!

واللغز الثاني: أنني حين طلبت منه التكليف أردت أن اعرّض بطريقتهم الغريبة في تكليفهم الناس شرعًا بحكم إلزامي، بمنهج لفظي تحليلي يتفردون به يرونه صوابًا.

فخذ ما قاله النيلي رحمه الله: «لا يجوز تفسير أو شرح مفردة أو لفظ بلفظ آخر .... شرح القاعدة: وضَعَ المنهج في نصوص قواعده عبارة (لا يجوز) ليوحي للقارئ أنه يؤمن بحرمة هذا العمل لما يحتمه عليه النظام القرآني كما سترى»

فبالله عليكم يا أهل الإيمان، هل يعقل هذا الكلام من التحريم والتشريع بناءً على ما يحتمه النظام؟ الذي يقول إن باب حطة وقعت مرتين لاختلاف النصين لفظاً!

فكيف يقبل أخونا القصدي أن يكلفنا بتكاليف شرعية ما أنزل الله بها من سلطان، ولا يقبل منا أن نكلفه تكليفًا مماثلاً في أمر عقلائي راجح محتمل التكليف شرعًا؟! حيث أنه طالبنا بتعريف المعجزة فقلنا له نكلفك شرعًا بتعريفها لأن من يطلب كأنه يعرف ما يريد، واللطيفة أنه لا يعلم أن المعجزة غير معرّفة اصطلاحًا وإنما هي على ما جرى عليه اللسان اللغوي (ظهور ما يخرق العادة). والأمر ليس في التعريف ولكنه في البحث الفلسفي في طبيعة المعجزة ومفاد (خرق العادة).

فهل هو بمعنى خلاف ما يظهر من نظام؟ أم هو تغيير النظام؟

فإذا كان الأول فهذا يشمل الخدع السحرية وما شابه، وإذا كان الثاني فهذا كلام كبير يحتاج إلى أكثر من تأمل بل يحتاج إلى دراسات وتأصيل لوجود قدرة على خرق النظام الكوني وتغييره.

ولهذا فإن بعض المعتزلة نفوا المعجزة وقالوا أن الله لا يخرق نظامه من أجل شخص حتى لو كان نبيًا وقالوا أن معجزة النبي الوحيدة هي القرآن لأن الله تحدى به ولم يستطع أحد أن يثبت أمام التحدي. وقد نقض أهل السنة قولهم بدليل الإجماع على وجود المعجزة كمعجزة الناقة في تبوك وغيرها، وردهم الشيعة بعدم التسليم بمقدمتهم فإن تغيير النظام ما دام مقدورًا لله فلا مانع من منحه لعبده الخاص، كما منح عموم عباده النظام نفسه، وهو ملكه والقادر على منعه. ولهذا فلا مانع من المعجز غير القرآن في طور الإمكان وقد وقع فعلاً في طور الحدوث فيكون كلامهم مجرد فلسفة لسانية لا محصّل منها.

وهنا قد يبحث بشكل دقيق هل ما تسمى معجزات إسلامية مثل معجزة القرآن هو أمر مغيّر للنظام الكوني؟ أم أنه يسمى معجزة مجازًا بمعنى عدم قدرة الإنسان من الإتيان بمثله، لا أنه خرق لنظام الكون، كما هي العصا حين تحولت إلى حية حقيقية.

والجواب على هذا يتوقف على فهم طبيعة المعجزة القرآنية فمن يؤمن بأنه يحدث تغيرًا تكوينيًا في الإنسان وفي أشياء لا نفهمها كما قال تعالى {لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا القرآن عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} فهذا يعني أنه يغيّر نظام الكون وهو ما أؤمن به بحسب المعطيات بين يدي، وأما إذا قيل بأن إعجازه مجرد رفعة لا يصل إليها إنسان ولا يحدث تغييرًا تكوينيًا، فهذا ليس تغييرًا للنظام فهو إما مجاز بناء على كون خرق العادة هو تغيير النظام أو أنه حقيقة ولكن بناء على كون خرق العادة معناه عمل غير المعتاد.

وهذا يحتاج إلى دراسة واسعة ننبه لها من يريد التعمق.

بقي أن أقول أن المنهج القصدي حين نُشر في النجف الأشرف وجهت إليه اتهامات كثيرة أبسطها المروق عن الدين وغير ذلك. وهذا لسببين،

الأول: عدم وضوح عرض الفكرة من قبل أربابها.

والثاني: عجلة الحاكمين عليه نتيجة السبب الأول والتقاعس عن التنقيب لمعرفة الحقيقة.

فليس معنى أن هناك اشتباهات يعني المروق من الدين. والخطأ الكامل، فأنا شخصيًا أرى أخطاء منهجية وتطبيقية في المنهج اللفظي القصدي ولكنني لا أرى فيه مروقًا أو إساءة للدين بل هو محاولة مخلصة لتصحيح الإنحرافات الدينية وللمساهمة في فهم عظمة القرآن الكريم، لأن المنهج القصدي يريد أن يعيد صياغة العلوم على أساسٍ مِنْ حلِّ اللغز القرآني الكامن في سر حروفه ومعانيه، وهذه نية حسنة وليس من حقنا أن ندعي سوء النية لأننا نختلف مع النتائج، وكان رد فعل القصديين عنيفًا على منتقديهم بحيث أخرجوهم عن العقيدة والدين السليم واتهموهم بالتحريف المتعمد لفكر أهل البيت علهم السلام وما شابه ذلك. وكل هذا لم يكن له موجب، نسأل الله الهداية للجميع.

وكم أتمنى من كل قلبي أن يتطور هذا المنهج لنصل إلى أجوبة حقيقية غير قابلة للنقاش.

القصدية ونفي الاستقراء

الأخ القصدي بارك الله فيك ووفقك لمراضيه،

يبدو علينا الاتفاق في كثير مما هو مطروح ولا خلاف فيما نتفق، ولكن ما اختلفنا فيه فهو على ميزانك القصدي وهو غير مسلّم عندي في الجملة، وقد اتفق معك في بعض التفصيلات.

ومما لا بد أن أنبهك عليه هو أنك قلتَ: «إن منهجية السيد الشهيد المبرور محمد باقر الصدر رحمه الله تعالى في إثبات هذه القضية هي منهجية مبتكرة وفذّة ولا شك .. ولكن من قال أن الاستقراء يعطيك نتيجةً جازمةً إلاَّ أن يكون هو تاماً .. وهو ما ذكره رحمه الله تعالى أيضاً كما هو واضح .. فهل استقرأنا حياة الرسول صلى الله عليه وآله جميعها .. وهل يسعنا ذلك؟ .. وماذا تقول لمن يستشكل على استقراءك بتفاصيله، وهو استقراءٌ لم تعاينه، بل نقل لك نقلاً عبر المؤلفات المختلف فيها أيضاً؟! ..»

وهذا تشكيك في منهج السيد محمد باقر الصدر الذي طرحه بروعة وسلاسة، وهو منهج جميع الشيعة في إثبات النبوة والمعجزة ومعجزة القرآن بالإستقراء، وحتى بناءً على النظام القرآني بالتفسير القصدي فإنك مجبر لأن تحرر المسألة بالطريقة التي شرحتها وهي أن

نظامًا محكمًا بهذا الشكل لا يصدر من رجل عادي غير متصل بالله، وهو المعجزة الحقيقية أي معجزة كونه يد الله الضاربة لعقول البشر. ولو نفيت عنه كونه معجزة فأنت تنفي عنه بالضرورة كونه متصلاً بالله، وفهمك بأن اختلافنا إنما هو في التقديم والتأخير صحيح ولكن الصواب بعيد عن فكرة تقديم القرآن عن دراسة ظرف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فظرفه هو الذي يجعل صدور القرآن منه مستحيل أبدًا، والنظام القرآني يثبت الإحكام في القرآن فيما لو تم التسليم بأن قواعد الأحكام لم تؤخذ من نفس القرآن لأنها دورية وهذا هو مدعى المنهج القصدي أي أن المنهج نفسه مستنبط من نفس القرآن.

ثم إن ردك مبني على عدم صحة الاستقراء مع اعتماد صحة المنهج اللفظي القصدي وهو منهج استقرائي أيضًا، والفرق أن ذاك استقراء أحداث ونصوص وهذا استقراء نصوص وكلاهما بنفس القدر من القيمة العلمية.

فهذه مجازفة كبيرة منك، فأنت تهدم هنا ولا تستطيع أن تبني ... إلا بدعوى أنّ عندك الحل، وحلك قد يحتاج عشرة مجلدات من الكتابة وفي النهاية يقال لك نحن لا نسلّم لك، فيصبح إسلامك بفعلك عاريًا عند إخوانك المسلمين وتبقى أنت وحدك مقتنع بأن الحل عندك وهو صحيح!

فهل تقبل هذا لنفسك؟

ولو إلتفتَ إلى دليل النقض لوجدته لا يمكن اعتباره، وهو (شرط المشاهدة) وعدم اعتماد النقل. وهذا نقض لدليل الاستقراء الذي ذكره المرحوم السيد الصدر بما لا يصح مطلقاً، ولا يستحق النقاش، لأنه يغفل عن أبسط أمر في العلم وهو التواتر.

وأكرر شكر لك ومحبتي الدائمة التي لا يشوبها شيء.

واقتصر على هذا لما له دخل في صلب الموضوع. والبقية جزاؤها الصفح.

الإعجاز من ناحية القصدية: الرفض والقبول!

الأخ القصدي بارك الله فيك،

طبعا أعرف تمامًا منطلقات الفكر القصدي وصداقتي بأربابه متينة بل أزيدك علمًا بأنني اكتشفت الفكر القصدي ونقدت تأسيسه قبل أن يؤسس بعشر سنوات، وكان لذلك دواع فكرية وفلسفية منها قصور علوم الدلالة وجمالية الأداء اللغوي عن الوصول إلى كنه إدراك القرآن، وعلى كل حال فهو لم يغب عن الذهن. ولا يلزمني السير وفقه لأن رتق فتقه يصعب على الراقع. وهذا رأيي بصراحة وقد أبلغته لصديقنا الدكتور أبي زينب وغيره مرارًا بل قل لا يكاد لقاء يخلو من المناقرة فيه. ولن يغيّر هذا من نظري الحسن بهذا المسلك الذي يحاول أن يستكشف العمق القرآني من خلال حياة اللغة وقدرتها على التعشيش في العقل وقدرتها الفائقة في بناء هندسة علاقات معنوية بروابط لغوية رائعة لينتج لنا العلوم بطريقة (عقلية – نفسية- رياضية- هندسية) مع غلاف جميل من عدم القدرة العقلية على الكشف الحقيقي، ولو حدثتك بالمخاض العسير الذي أنتج عندي الفكر القصدي قبل نقده وقبل قصدية النيلي رحمه الله (وما أكثر اشتباهاته في نظري) وذلك قبل أكثر من ثلاثين عامًا، لتعجبت من الأسباب والنتائج وعلى كل حال كان بعض السبب هو التعمق في دراسة

الأسفار للملا صدر المتألهين رحمه الله والتعليقات القوية للملا محمد هادي السبزواري في شرح الأسماء الحسنى في تفكيك بنية النص لصالح عمق المعنى مع مقارنتها بنصوص أهل البيت عليهم السلام والقرآن الكريم، فبدأت التركيبة تختل فتكونت فكرة وحدانية الكلمة في القرآن وانهارت نظم اللغة نفسها ليرتفع نظام القرآن بتفرده في لغة حية موحاة وهي لغة خطيرة تزيد المؤمن إيمانًا والشرير شرًا بسبب الدخول (عليه وله) وفق النظام أو عكس النظام. ولهذا كنت أخاف من القرآن الكريم جدًا حيث أن الطريق إليه يجب أن يكون وفق نظامه هو لا وفق نظامنا نحن، لأن الرؤية ستكون معكوسة للصورة القرآنية ليس عكسًا بصريًا كتحوّل اليمين إلى شمال، ولكنه عكس الحقيقة لتحوّل الشر خيرًا والخير شرًا، وكانت انطلاقتي كانطلاقة المرحوم النيلي والدكتور أبي زينب من خلال قصور العرض العلمي والفهم اللغوي وتحريف المعاني بموجب قواعد لغوية صارخة في التعدي على حرمة القرآن. ولكن بعد دراسات تبين لي وجه المفارقات وكيفية التكييف لإنتاج معرفة دقيقة جدًا وتبين لي طريقًا أفضل من القصدية التي اهتديت إليها قبل النيلي بما لا يقل عن عشر سنوات.

وبالنسبة لمداخلاتك فهي خارج موضوعي، وبعضها فهمٌ غيرُ قصدي لقصدي. وللطريفة فقد أطلعت الأخ الدكتور أبو زينب حين زارنا هنا قبل أن يلتحق بكم في بلادكم وقبل أن أنشر الموضوع بساعات وقد اعترض على نقاط معينة متهماً البحث بمجاملة طريقة التحليل الفلسفي للنص فأوضحت له بعض خفايا الموضوع وطرحت عليه أسئلة محرجة، فاقتنع وسحب اعتراضه.

رأيي أن أعظم المعاجز هو القرآن وأنه معجزة خالدة، ولكن لا تُفهم معجزته إلا لمن رزق فهم ذلك، نعم تفهم عظمته بشكل عام، وهذا غير ذاك.

وخلافك معي هنا غير واقعي. وحتى على فهمك القصدي، فهو نفسه يحتاج إلى فهمٍ، وإلى نخبوية ضيقة حتى يسلّم به. على أنه غير مسلّم عند أهل ملتك فكيف تريد أن نُدخل هذا في مخاطبة من نرسل لهم الرسالة، وقد فهمها أخيك باحث مسلم وعرف أنها رسالة الإسلام لمن لا يعرفه ولمن يفكر بطريقة غير إسلامية وغير روحية. وأنها بداية انطلاقة لطريقة حوار جديدة مع خصوم الإسلام وليس مع أتباع الإسلام فهذه لا تنظر إليهم.

وأؤمن بأن الإسلام نفسه معجزة وهو معجزة خالدة، وأن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم معجزة وهو معجزة خالدة والبحث في هذا يحتاج إلى مقدمات وأُذن واعية.

وبهذا علينا أن نبحث بطريقة غير تقليدية وهو ما أدعو إليه عسى أن يُوفق المسلمون له.

حسب تقديرك هل نبدأ من القرآن لإثبات الإسلام؟ أم نبدأ من الإسلام لإثبات القرآن؟ أم نعرف القرآن بمعزل عن الإسلام؟

فماذا تقول لو قيل لك أن المتشابه يسقط البنية القرآنية (وهذا يقول به من يدعي أنه مسلم) فكيف بمن يكفر بالإسلام؟

وما رأيك بأن من أعاظم المسلمين من يقول بأن المحكم هو غير المفصّل؟ هل تعرف معنى ذلك؟

فهل تنقذه القصدية؟ وهي نفسها من المتشابه إذا فهمت قصدي!

وهل نستعين بنظام المصفوفات التي رآها النيلي دليلاً؟

كان من واجبك التوازي لا التعامد معي لأن النيلي نفسه في ص ١٤٢ في النظام القرآني- في المنهج اللفظي طبعة دار أسامة يفسر ظاهرة خروج شباب الأمة إلى ميادين الحداثة هربًا من المجهول والصعب الغامض بما تحت الثقافة الإسلامية فسقطوا في وحل العشوائية. وقد شبه نصوص الحداثة المناهضة لسيرة المسلمين: كمن يريد تحطيم عدوه فحطم تمثاله للتدليل على خواء الطرفين.

فبأي معيار ستناقشني هل بمعيار العلوم الآلية وأنت لا تؤمن بها أم بمعيار الحداثة وأنت تحتقرها أم بمعيار القصدية وأنت لا تستطيع فرضها لأنك لم تقنعنا بها أصلاً! على أن موضوعك سابقًا لنفي المجاز كان خطأ تقنيًا في الفكر القصدي نفسه لأن المنهج اللفظي للنيلي ينفي المجاز في النظام القرآني لا في النظام اللغوي المخاطبي البشري كما تصورت، رغم عظيم المجازفة بهذا النفي.

ولهذا لن أحاورك في القصدية ولا في غيرها وأعرف أنك تستطيع أن تكتب عشرات الصفحات وأستطيع أن أجيبك عنها بجملة واحدة وهي أن كل أجوبتك خارجة عن المعيار الصحيح في تقييم الأفكار لدورانها بين ما ترفضه وما نرفضه، و عليك أن تنسجم مع أفكارك حين الحوار فلا يجوز أن تحاورني بمعايير لا اسلّم لك بها. أو بمعايير لا تقبلها لنفسك، وما حدث كله كذلك لو دققت بعمق بارك الله فيك.

المشكلة في كيفية إثبات معجزة القرآن؟

طبعا ألمحتُ في المشاركة السابقة إلى طريقة الحل ولا أريد أن اكرر.

يبقى رأيك: أن إيمان العجائز يكفي وغير ذلك فهذا بعيد عن بحثنا.

نحن نريد بحث قضية مهمة جدًا وهي: هل نأخذ الإسلام بطريقة التفكير العقلي السليم أم بطريقة خرق العادة؟

وهنا يأتي إشكال عليك محير: كيف انتقدت الإيمان الفطري بمعجزة شخصية الرسول ثم استدللت بصحة إيمان العجائز؟

أما بالنسبة للمعجزة فحقيقة أنني لم اعرّفها جيدًا ولهذا أريد منك أن تتفرغ لبحث تعريف المعجزة.

فأكلفك تكليفًا شرعيًا أن تتفرغ لتعريف المعجزة وما قيل فيها وكيفيتها وما هو رد الفعل تجاهها.

فهل هي مجرد خرق العادة وهذه تشمل السحر وكل حقيقية خفية مثل حقائق الكيمياء والفيزياء، أم هي كما يدعون من تلازم دعوى النبوة مع خرق العادة ليعطي الدليل التام على صحة النبوة.

فهل ما يعمل به مشعوذو الهند والكهنة المسيحيون واليهود إلا هذا؟

ابن تيمية اقترح أن هذا إنما يكون لأن المعجز يقع على يد الشيطان وليس من الله؟ فما هو دليله؟ وكيف نفرّق إذن؟ فإذا كنت لا تقبل باقتراح المشرك ابن تيمية فبماذا ستحل مشكلة عدم انطباق التعريف في هذه الموارد الخطيرة.

وكيف يكون المعجز دليلاً؟

هذه أسئلة يجب أن يجيب عليها المسلم.

وبدونها يكون إسلامه إسلام العجائز الذي يعجز عن مقارعة حجة الخصوم.

لو قال لك مجرم أن فكرك القصدي مبني على كون القرآن كتاب الله فيه روح الأرواح وسر الأسرار ولهذا أنت تتلذذ بنصوصه وتخترع طرقًا للمقارنة بين مصفوفات الألفاظ والمعاني كما فعل النيلي ص ٣٠-٣٣، وليس هو ككلام المخلوقين عندك، وأنا لا انطلق من هذا وإنما من كونه كلامًا عاديًا لا يأخذ بقلبي، فعند هذا المجرم أن الآية: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} فيها خطأ معنوي وبلاغي لأنها وردت جوابًا على غير التكذيب فما علاقة الجبال والكون والأمم والعدالة بالتكذيب؟ فهل إذا كانت الجبال شاهقة والأرض مزروعة وخُلق الإنسان من ماء مهين يجب تصديق القرآن أو رسالة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟ فهذا انعدام علاقة بموجب علوم البلاغة والقصدية كذلك، ولأنها تمثل إرهابًا فكريًا حيث يرفض الحوار قبل التصديق، فالتكذيب بما هو تكذيب ليس موجبًا للعقاب وإنما تكذيب الصدق هو الموجب للعقاب، وهذا هو محل البحث. فالخطأ المعنوي هو كونه يريد التصديق قبل التصديق.

هل تعتقد أن النصارى واليهود وغيرهم لم يقولوا هذا ومثله؟ أذن أنت مشتبه فانظر ما يقولون وانظر لضعف محاوريهم من المسلمين لأنهم لا يعرفون ميزة إسلامهم.

فهل ستجيبه بالقصدية التي أساسها التصديق بالقرآن وهذا دور؟ أو تجيبه بالبلاغة التي تثبت كلام الكفار بصور شتى؟ وأنت ترفض هذا المبنى.

نحن مدعون جميعا لملئ فراغ خطير في الفكر الإسلامي، نتيجة نزاعات فارغة وترك أمور مغفلة دخل منها المعادون للإسلام.

فشمر عن ساعد الجد الإسلامي وفكر في طرق الرد عليهم لا الرد على من يؤيدك فتظن أنه يخذلك.

ولا أعلق على كلامك بالخصوصيات إلا بمقطوعة طريفة واحدة وهي:

إقتباس:

> والإضاءة الحقيقية جاءت من حياة الرسول صلى الله عليه وآله حيث لم يحتج المؤمن إلى معجز ولم ينتفع الكافر والمنافق بالمعجز.
>
> نعتقد بأن الإضاءة الحقيقية هي في ما جاء به الله تعالى لأجل أن يُصدَّقَ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.. إنها في نفس القرآن .. علينا أن نبحث عنها فيه لا في حياة محمّد (ص) .. لأن القرآن هو الذي شكّل لنا المعجزة الأخرى التي اسمها (محمد) و(علي) و(فاطمة) .. عليهم من الله السلام التام ..
>
> فالأمر هو عكس ما تقوله يا مولانا الكريم .. القرآن أولاً ثم الرسول ..

وهنا أسألك: حين جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم لخديجة عليها السلام هل أقنعها بالقرآن {بقوله إقرأ ...} أم بحالته؟

فإن قلت بالقرآن فالتأريخ والواقع يخالفك، وإذا قلت بحالته فأين نظريتك (القرآن أولاً ثم الرسول ..)

فمن دون تمحّل بالقول أن كلمة (اقرأ) تختلف عن (انظر وفكر واعلم واكتب) إلخ ... لنغوص بسر إعجاز قوله اقرأ، فهذه لا تنفع في هذا المقام.

طبعا سأطالبك بأسماء الصحابة الذين آمنوا برسول الله بواسطة المعجزة؟ لأنني لم اعثر عليهم وأنت استنكرت هذا وكأن المعجزة صنعت لنا أنصارًا وجيوشًا من البشر، وفسرت الأمر بالنسبة لعلي عليه السلام بأنه توأم النور، ولكن رسالتي لمن لا يفهم النور أصلاً، وعلى هذا الأساس ننطلق فنقول: إن علي بن أبي طالب عليه السلام هو من اعقل العقلاء فلماذا لم يطلب إثبات النبوة بالطريقة التي يقول بها علماء الكلام وأصحاب العقائد؟ وكذا خديجة وكذا هند بن أبي هالة ومن بعدهم من المسلمين.

هذا جوهر السؤال.

ولماذا بمجرد وفاة رسول الله تبين أن الناس لا يحفظون القرآن ولا يعرفون حتى الصلاة وإن عمران بن الحصين حين صلى خلف علي عليه السلام في البصرة قال ذكّرنا بصلاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أي أن الصحابة نسوا صلاة رسول الله وذكرهم بها وبسمتها عليّ عليه السلام، فهل تفكر في معنى هذا الكلام؟ إنها السطحية في تناول الإسلام عند الأوائل حيث لم يتميزوا بالعمق الذي يفترض فيمن يواجه المعجزة أمامه. فأين هذا التمسك بالكلام والفعل المعجز؟

حين نريد أن نكتب يجب أن نكتب نظرية متكاملة منسجمة، لا مجرد لمعات فكرية جميلة تبرق في زاوية من الدماغ فتولد معرفة نرجسية جميلة نثبتها فورًا.

أرجو أن لا تتعجل بالكتابة أيدك الله.

يا سيدي المعجزة القرآنية يجب دراستها بشكل شامل لا بنظام قرآني وحده ولا تاريخي ولا اجتماعي ولا قانوني ولا علمي، فقد وصف جوانب منها سماحة الشهيد محمد باقر الصدر.

وقد نمر عليها بشكل تفصيلي، إذا وفقنا في هذا المقال.

فلهذا اعتبر أن مثلك من المثقفين لا يجوز أن يتمسك ببعض الألفاظ ويفهمها على غير حقيقتها ويناقش. فأنت أجلّ من هذا بكثير. ولا أنسَ أبدًا أن أشيد ببعض اللمعات الفكرية الجيدة التي طرحتها وبالنفس الواعي والمتحمس للإسلام، وعلى كل حال كانت مناقشاتك مفيدة جدًا ومهمة، ولكن أحب أن تركز على حل المعضلات التي لا يفكر بها البسطاء بل يزيدها إعضالاً. فقد اطلعت في النت على حوارات حول معجزة الإسلام فإذا بالمسلمين يقولون للمسيحيين بأن الحديث الشريف يقول كذا ويدافعون عن أحاديث هي سبب المعضلة وسبب هبوط قيمة الرسول صلى الله عليه وآله بحسب تلك الأحاديث التي تصور الرسول صلى الله عليه وآله بما دون قيمة الإنسان العادي.

ورقة بن نوفل ونبوة النبي

الأخ أبو محمد العاملي* أيدك الله ،

كل ما دار عليه النقاش في موضوع ورقة بن نوفل يستند إلى رابط خفي وهو الرواية المنسوبة للسيدة عائشة في تفسير سورة اقرأ ونزولها، باعتبار أن ورقة كان المرجع في بيان صحة الرسالة للنبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأصل الموضوع لا صحة له كما تعلم، وكما هو ثابت عندنا، ولكن المشكلة أنّ الأطفال في المدارس يدرسون الحادثة وفق هذه الرواية التي لا تثبت عند النقد، وهي أُس التشكيك برسالة النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم حسب فهم النصارى، فقد استخدموها ووظفوها بشكل متكلف، والحق يقال أن الرواية نفسها لا يستفاد منها هذا الربط الكبير الذي يفتعله أعداء الإسلام، ولا تدل على أكثر من كون ورقة من أهل العلم بالنبوة وأن السيدة خديجة سلام الله عليها سألت عمها هذا، وأجابها عن طريقة كشف النبوة وصدقها، من خلال كشف طبيعة من يأتيه: هل هو الملاك أم غيره؟ وهذا لا يساعدهم في دعواهم التلقي من ورقة.

* وكان الشيخ رحمة العاملي قد نقل نقاشًا دار بينه وبين أحد القساوسة سابقًا.

فتكون كل القضية عبارة عن ربط متكلف من أجل تثبيت فكرة أن النبي محمد عليه وآله الصلاة والسلام هو نبي لعيسى وقد ضل، وهذا أيضًا لا يسقط نبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عندهم لأنهم لا يمتنعون من النبوات اللاحقة، فلماذا يحرمون النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم دون غيره من البابوات عندهم؟ ما داموا يؤمنون باستمرار النبوة لهذا اليوم!

فالذي يبدو أنهم يتخبطون بخلاف مقاييسهم في قضية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، مع أنهم حكموا بنبوة أناس حكمت عليهم الكنيسة نفسها بالإعدام كنبوة جان دارك التي أعدمتها الكنيسة بتهمة الشعوذة.

فلماذا لا يحكمون بصدقية نبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المصدّق لنبوة النبي عيسى ؟ بحسب مقاييسهم!

الكنيسة وموقفها من النبي ومعجزته

الأخ أبو محمد العاملي وفقك الله.،

إن نقلك للنص من كتاب الإسلام والغرب للباحث نورمان دانيال الصادر سنة ١٩٧٨ في أمريكا والذي يقول فيه:

«لقد بدا للمهتمين أن الهجوم المسيحي يجب أن يوجه برمته إلى تعرية رسول المسلمين فإذا أمكن إظهاره على حقيقته أي تجريده من صفات النبوة فان ذلك سيؤدي إلى انهيار صرح الإسلام كله»

هذا النص في غاية الأهمية، وهو في الحقيقة مفتاح ما يفعله الطائفيون في الكنيسة في الوقت الحاضر بل حتى الهندوس اتبعوا نفس النظرية فراقبهم في الانترنت باللغة الانجليزية، فمن يراقب بدقة ما تقوم به قناة الحياة الفضائية ومنتديات الانترنت سواء بصورة مسيحية مكشوفة أو بصفة اللادينيين والعلمانيين فإنها تطبيق عملي لهذه الخلاصة المهمة جدًا.

علينا أن نعلن وبصورة علنية لا مواربة فيها أن البذور الفاسدة الموجودة في الفكر الحشوي الذي فرضته الحكومات والسلاطين الخونة للإسلام لتشويه صورة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هي بذور مرفوضة ولا يمكن التسليم بها، ولا يمكن مناقشتنا كمسلمين بمثل

هذه الترهات التي لا نعتقدها ولا نبني عليها ديننا، وهي كذب قطعي على جناب الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

إن من يريد أن يحاورنا كمسلمين عليه أن يقبل بقواسم مشتركة تحدد مسار الحوار، ويناقشنا بما نؤمن به.. لا أن يفرض علينا اختياراته لما لا نؤمن به، بل نؤمن بخيانته وطعنه بنبينا وبإسلامنا بصورة متعمدة نتيجة الأحقاد الجاهلية التي ورثوها منذ هزيمتهم في بدر وأُحد والأحزاب، وقد سيطروا على الإسلام بالسيف واخذوا يدّعون بخبث شديد بأن الإسلام هو دين السيف وأن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو رجل عادي لا ميزة له إلا تلقي الوحي ونسجوا حوله القصص والحكايات المدفوعة الثمن، من أجل إسقاط هيبة النبي وتمكين هيبة السلطان الجائر أمام المسلمين، وهذا السلوك لا يمكن أن يكون هو الدليل على صيغة الإسلام، فإن اعتماد القسس الطائفيين على مثل هؤلاء، وتراثهم المشحون بالعداء للنبي محمد هو اعتماد على عدو النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهذا يعني سقوط مسعاهم لعدم الموضوعية والعدالة في الحكم، لأن شاهدهم هم من قادة بدر واحد والأحزاب وخيبر.

فهل يعقل أن قيادات هذه الجيوش المقاتلة للنبي محمد تكون مصدرًا من مصادر تقييم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإسلام عمومًا؟

ولا ينفعهم دفاع الحشويين من دعوى حسن إسلامهم بعد ذلك، فهذا ضحك على الذقون، وأكبر دليل على بطلان هذه الدعوى هو هذا الكم الهائل والفكر الباطل، لتثبيت عصيان وأخطاء الرسل، بل تثبيت صغائرية الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، بروايات خبيثة تهز صورته، وتلتقي مع الحقيقة التي بدت للكنيسة، وهي أن تدمير صورة

الرسول هو تدمير ومحق للإسلام، لإدراك أن الإسلام قائم على الثقة الملموسة بالرسول، وعلى عظمته، ودليل علو المرتبة يرتبط كليًا بشخصية الرسول وطبيعة محيطه الاجتماعي والثقافي، فالاستقامة وفقر البيئة المحيطة بكل شيء وعلو المنتج الفكري والثقافي الهائل تقرر أن من المستحيل عقلاً أن يكون الإسلام من غير الله.

بينما لو أخذنا الصورة الحشوية عن الإسلام فالرسول شخص غير مستقيم بكل المقاييس، والمنتج الثقافي مسروق من أقوال العرب أو الصحابة أو الديانات الأخرى، كالتوراة والإنجيل. وهو يحتوي على أخطاء، وأن الشريعة التي جاء بها النبي ناقصة تكملها عقول أهل الرأي! وما شابه ذلك من فكر إنساني ناقص. فهذه الصورة تنفي سماوية الرسالة الإسلامية، وينهار الإسلام من أساسه، وهو ما أراده قادة المشركين في بدر وأُحد والأحزاب بعد أن لبسوا مسوحًا إسلامية، واستغّلوا الثغرات الموجودة في القيادة الإسلامية بعد أن رُفضت نظرية الرسول في القيادة، فأصبحوا هم من يدير دفة سياسة وفكر الإسلام، وأصبح الإسلام بين أيدهم لعبة يتقاذفها صبيانهم، وأصبحت صورة الرسول المهزلة هي الصورة التي يجب أن يؤمن بها الشعب الإسلامي.

وهنا ملاحظة عجيبة وهي أنه رغم هذه الصورة وتركيزها في ذهن الناس، إلاّ أنها فشلت فشلاً ذريعًا في إخراج الناس من الإسلام، وفشلت نبوءة من حاجج الحجاج الثقفي حين قرأ عليه {ورأيت الناس «يخرجون» من دين الله أفواجًا} فاعترض عليه الحجاج بقوله بل «يدخلون» فأجابه بأن ذلك قبل زمن الحجاج، والآن تحوّل الأمر إلى الخروج عن دين الله.

والحقيقة أنها لفتة لطيفة من المحاجج فقد أدرك أن سلوك قادة المشركين في بدر وأُحد والأحزاب هو الطعن في الإسلام، وتحويله إلى دين يجب الخروج منه لا الدخول فيه.

فيبقى السر أن نصر الله للصورة الحقيقية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وللإسلام أقوى من هذا الفعل التشويهي، فلهذا بقى الإسلام محفوظًا على مدى الدهور، ولم تستطع كل قوى الشر أن تدمر الإسلام ولو شكلاً. فقد بقي اسم الإسلام وشكل الإسلام حتى عند اتباع المشوِهين بالكسر، وبقي الإسلام محفوظًا عند آل محمد وأتباعهم رغم المجازر، ورغم حملات التشويه ورغم الدسائس وحرق الكتب وقتل العلماء، وهذا من المعجزات التي لا يمكن نسبتها لغير الله سبحانه وتعالى.

علينا أن نعلن كشيعة بكل فخر واعتزاز أن نظرية العصمة هي نظرية تثبيت الإسلام، وهي الصورة الحقيقة للنبي ولباقي الأنبياء، الذين أرسلهم الله باصطفاء وانتخاب خاص يعلمه الله، بما لهم من القابليات الفذة التي لا شك في عدم وصول الآخرين إليها، وأن النظريات المناهضة للعصمة هي نظريات تقصد تدمير الإسلام من الداخل، والتخادم مع أعداء الإسلام من الخارج لتدميره.

وأن نعلن بلا خوف أو خجل أن هذه الأحاديث والصور عن الإسلام هي من صنع أعداء الإسلام، الذين تلبسوه بعد هزيمتهم المتكررة على أيدينا بقيادة نبينا نبي الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم، واستغلوا طيبة وسلمية الإسلام، وحوّلوه إلى دين وحشي لأكلة لحوم البشر، وقاموا بتشويه الإسلام وزرع الأدلة على انهياره في داخله.

وأن نعلن أن الإسلام الحقيقي القائم على تنزيه صورة الرسول من الخلل هو إسلام موجود فعلاً ومقرر بصورة علمية (نظريًا وعمليًا) يتمثل بفكر أهل البيت عليهم السلام، الذي يصمد أمام كل هذه التشويهات المفتعلة.

وعلى جميع المسلمين أن يتحدوا حول فكرة نزاهة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من كل ما أُلصق به من تهم وصور مهينة عبر أحاديث منسوبة عليه كذبًا وزورًا. ولا نكتفي بأن نقول بأنها "تسربت إلى الصحاح" كما يفعل الآن بعض الأزهريين وفقهم الله فهذا قول على استحياء يفتقر إلى الشجاعة.

والشجاعة أن نقول أن هذه الأحاديث الصحيحة بمقاييس بني أمية، صدرت من مدرسةٍ كانت تقود الجيوش ضدنا حتى هزمها الله على أيدينا بقيادة نبينا الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، ثم اعتنقت الإسلام كرهًا نتيجة الهزيمة الحتمية، فأطلقهم رسول الرحمة بقوله اذهبوا فأنتم الطلقاء، فأخذت تكيل له من الداخل بتشويه الصورة، وببث الدعايات على شكل أحاديث عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وسيرته، وقدموا بذلك أعظم خدمة لأعداء الله وأعداء الإسلام.

جوانب معجزة النبي

الشيخ حبيب الأسدي وفقك الله،

ما أعظم ما نقلتهُ لنا عن المرحوم الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء* الذي يدل على علو مقامه وإدراكه لمعضلات الإسلام على نحو التشخيص الدقيق. إنّ من آمن بالرسول إنما اتبع الطبع الإنساني في تشخيص الموازنة بين (العلو والاستقامة وبيئة الرسول العلمية والاجتماعية) فيَخلصُ لنتيجة حتمية هي صحة الرسالة من الله سبحانه وتعالى.

وقد أعجبني قوله: «بل يمعنون نظرًا في شمايل ذلك المدعي للرسالة ويغرقون نزعًا في تدبر رسالته وما جاء به من عند مرسله فإن وجدوا على شمايله دلايل من مرسله وعلامات

* نقل الشيخ حبيب الأسدي للمرحوم الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء قدس سره كلامًا، هو: "أما الخاصة فهم بفضل ما عندهم من العلم والمعرفة وصحة الحدس والفراسة، في غنى عن تحري المعجزات والتماس خوارق العادات بل يمعنون نظرًا في شمايل ذلك المدعي للرسالة ويغرقون نزعًا في تدبر رسالته وما جاء به من عند مرسله فإن وجدوا على شمايله دلايل من مرسله وعلامات من مبتعثه وأن رسالته طبق ما يعلم من حا ل المليك الذي يدعي الرسالة عنه وعلى وفق ضروريات الأمة التي ارسل فيها وقام بين ظهرانيها ودعاها إلى اتباعه . والعمل بما جاء به، ارتاحوا به وسكنوا اليه واغناهم ذلك عن الاعتضاد بمعجزه والاعتماد على مدهشه .

وكان لهم من نفس دعواه وجوهر مقالته اعدل شاهد على صدقها واقوى دليل على صحتها.."

إلى آخر ما ذكره قدس سره في كتابه القيم (الدعوة الاسلامية) ص ٢٢٩ من الجزء الثاني.

من مبتعثه وأن رسالته طبق ما يعلم من حال المليك الذي يدعي الرسالة عنه وعلى وفق ضروريات الأمة التي أرسل فيها وقام بين ظهرانيها ودعاها إلى اتباعه، والعمل بما جاء به، ارتاحوا به وسكنوا إليه وأغناهم ذلك عن الاعتضاد بمعجزه والاعتماد على مُدهِشه، وكان لهم من نفس دعواه وجوهر مقالته أعدل شاهد على صدقها وأقوى دليل على صحتها».

غير أنني أعتقد بأن المسألة ليست ذوقية بقدر ما هي عقلية محكمة لها ثلاثة أطراف كما كررت:

- استقامة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.
- علو المنتج الفكري (قرآن وأحكام وسيرة): شمول.
- محيط الرسول: فقر ثقافي واجتماعي وسياسي واقتصادي، عدم اتصال حقيقي بالحضارات، عدم سبق هذا الإنتاج ولو جزئيًا.

فهذه تنتج نتيجة حتمية هي صدق الرسالة، وهي تتوافق مع الذوق طبعًا من غير شك.

الخاتمة

إنّ القارئ المنصف للتاريخ، سيّما في صدر الإسلام والدعوة، يتقيّن من أن قريش لم تسلم بل استسلمت، وأنها لم تؤمن يومًا بنبوّة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على نحو النبوّة القرآنية كما هي مقررة بل آمنت به ملكًا على العرب وصاحب سلطة ونفوذ! كما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «قال له قائل: يا أميرالمؤمنين، أرأيت لو كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ترك ولدًا ذكرًا قد بلغ الحلم، وآنس منه الرشد؛ أكانت العرب تسلم إليه أمرها؟

قال: لا، بل كانت تقتله إن لم يفعل ما فعلت. إن العرب كرهت أمر محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وحسدته على ما آتاه الله من فضله، واستطالت أيامه حتى قذفت زوجته، ونفرت به ناقته، مع عظيم إحسانه إليها، وجسيم مننه عندها، وأجمعت- مذ كان حيًّا- على صرف الأمر عن أهل بيته بعد موته، ولولا أن قريشًا جعلت اسمه ذريعة إلى الرياسة، وسلمًّا إلى العز والإمرة، لما عبدت الله بعد موته يومًا واحدًا، ولارتدت في حافرتها، وعاد قارحها جذعًا، وبازلها بكرًا، ثم فتح الله عليها الفتوح، فأثرت بعد الفاقة، وتمولت بعد الجهد والمخمصة؛ فحسن في عيونها من الإسلام ما كان سمجًا، وثبت في قلوب كثير منها من الدين ما كان مضطربًا، وقالت: لولا أنه حق لما كان كذا.

ثم نسبت تلك الفتوح إلى آراء ولاتها، وحسن تدبير الأُمراء القائمين بها، فتأكّد عند الناس نباهة قومٍ وخمول آخرين؛ فكنّا نحن ممّن خَمَلَ ذكره، وخبتْ ناره، وانقطع صوته وصِيْتُه، حتى أكل الدهر علينا وشرب، ومضت السِّنون والأحقاب بما فيها، ومات كثير ممّن يُعرَف، ونشأ كثير ممّن لا يُعرف ...» (شرح النهج ج٢٠/٢٩٨).

وقد تسرّب هذا المفهوم المشوّه للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى الإسلام شيئًا فشيئًا مع توارث السلطات، وقيام الدول الفاسدة تحت رايات السلاطين الفسقة. إن سلطانًا فاسدًا يصلي الجمعة في ضحى الأربعاء، أو سلطانًا يوّرث الجواري والقصور ويدعي خلافة النبي وقيامه بحراسة الدين والدنيا هي مهزلة يضج منها تاريخ الإسلام للأسف، وهي الدافع الذي جعل هؤلاء ليبرروا لأنفسهم فعلهم، القيام بتشويه صورة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، فصار النبي يسهو ويلعب، ويسمع الغناء ويتزوّج القصّر، وتملؤه الشهوانية ويسب ويلعن ثم يتعذّر ويندم، ويعبس بوجه الفقراء ويستبشر بوجوه الأغنياء المترفين، لا يعرف متى صلى، يسحره السحرة، ولا يعرف وهو ابن مكة والمدينة والوَصل بين عالم الغيب والشهود والخاتم بين عالم الملك والملكوت .. كيف يزرع نخلة!

وهكذا بات النبي الأعظم صلى الله عليه وآله إمرءًا عاجزًا لا ميزة له ولا ذكر سوى أنه لاقطة وترجمان لوحي إله محدود بالأعضاء يجلس في السماء وينزل ويصعد على حمار – عز شأنه سبحانه-! ولأجل ذلك صارت المعجزة بعد أن سُلبت من شخص النبي صلى الله عليه وآله قاصرة عن اثبات نفسها أمام موجات التشكيكات والإلحاد وبات القرآن وهو الثقل الأول يعاني وحيدًا بعد أن فُرّق عن سنده وظهره وهو الثقل الثاني المتمثل بالرسول الأعظم وآل بيته عليهم السلام، وتحولت معجزة الإسلام إلى سطحية والدفاع عنه إلى اجترار ممل

للشعارات، وبات القرآن كمعجزة محصورًا بحفظه وتلاوته وكأنه شريط مسجل وبتجارة مدعي الإعجاز العلمي!

لقد نُزع من الإسلام روحه، ومن عظمته ثوبه، وهذا الكتاب إنما هو جرس إنذار لإعادة قراءة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وفهمه، كمعجزة أولى، وأن وجوده وكيانه حقيقة هو المُعجِز، وأن صورته التي يشوهها الملحدون وأصحاب الديانات الأخرى ساهم بها بشكل مباشر بل وصاغها ممن يحسب على الإسلام، فأمدّهم بالمادة، وأعطاهم الذريعة لذلك.

إن معجزة الإسلام تتمثل بمعرفة الله الخالق البارئ المنزّه عن الأوهام والأجسام، المتعالي عن الزمان والمكان، المطلق اللا متناهي، الحكيم الخبير، وبهذه الشخصية العظيمة، شخصية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، الشخصية النورانية، الملكوتية، المعصومة، الحقيقة التي انبثقت منها الحقائق، ومن تربع على عرش قوس الصعود حتى صار – ولم يصر قبله أو بعده – من هو قاب قوسين أو أدنى، ومن ثم من أوصى بهم وبمودتهم واتباعهم من الأئمة الطاهرين عليهم السلام.

«اشرحوا للناس وبينوا لهم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو هذا، وأن دينه الإسلام هو هذا، عرفوهم بالدين وبصاحب الدين صلى الله عليه وآله وسلم، حتى يشملكم صاحب الزمان عليه السلام برضاه وعنايته .

عرفوهم من هو نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، وكيف كان يعيش، وما حققه وأنجزه للبشرية، وأبعدوا الأوهام عن وجه هذا الدين الجميل المشرق، حتى يعرف الناس ما هو، ومن هو الذي أتى به صلى الله عليه وآله وسلم»[*].

المُعِد

[*] من كلمة الشيخ الوحيد الخراساني في ١٥ / صفر / ١٤٢٢ هـ.